روايات عبير
مارغريت روم
رجل من نار
١٧

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 17

رجل من نار

من أجل سعادة عمتها واستقرارها قررت تينا أن تخوض مغامرة كان مجرد التفكير فيها يرعبها : الاشتراك في بعثة ذاهبة إلى ادغال الامازون منتحلة اسم عمتها وصفتها، وعمتها عالمة نباتات شهيرة !

وعانت تينا الكثير في هذه الرحلة المحفوفة بالاخطار لاسيما انها غريبة وسط هذه المجموعة من علماء وباحثين تألف منهم الفريق الذي يقوده رجل غريب الاطوار يدعى رامون فيغاس المعروف بـ «الرجل الناري» بسبب مزاجه الصعب وعناده وقسوته وتعاليه.

وخلال الايام الطويلة التي امضتها تينا في ادغال الامازون بين الوحوش المفترسة والحشرات السامة والقبيلة الاقرب الى الحيوان منها الى الانسان ، استطاعت ان تحقق عدة مكاسب . فماذا حققت تينا وكيف انتهت العلاقة المتوترة بينها وبين رامون فيغاس وما هي المفاجأة التي أعدتها لعمتها ؟

لبنان	٦ ل.ل.	الكويت	٧٠٠ ف	اليمن	٨ ر	السودان	٧٠٠ م
سورية	٨ ل.س.	الامارات	٩ د	تونس	١ د	U.K.	£ 1
الأردن	٥٠٠ ف	البحرين	٩٠٠ ف	ليبيا	٧٠٠ د	France	F 10
العراق	٥٠٠ ف	قطر	٩ ر	المغرب	٨ د	Greece	Drs 120
السعودية	٨ ر	عمان	٩٠٠ ب	مصر	٧٠٠ م	Cyprus	P 1

العنوان الاصلي لهذه الرواية بالانكليزية

MAN OF FIRE

المراسلات :

Harlequin (Cyprus) Ltd.
29 Michalakopoulou St.
Athens T.T. 612, Greece.

Printed in Great Britain by
Richard Clay (The Chaucer Press) Ltd, Bungay, Suffolk

١ - العمة كريس

ترنحت تينا دونيللي تحت ثقل المشتريات التي تحملها، وأغلقت وراءها الباب قبل أن تلقي بالرزم العديدة على أحد المقاعد القريبة.

وتنهدت وهي تحمد الله لأن عمتها كريس أصرت على عدم الانتقال الى هذا البيت الجديد الا بعدما تأكدت من تركيب التدفئة المركزية فيه. وبدأ الدفء يذيب الجليد الذي علق بشعرها الذهبي المائل الى الاحمرار، والذي أبى أن يستقر تحت قبعتها المصنوعة من الفراء. مرة أخرى، ألقت نظرة على مشترياتها قبل أن تحملها وتسرع بها الى المطبخ، لتعد العشاء لها ولعمتها.

وأخذت تترنم بقطعة موسيقية وهي تقوم بعملها، فهي تحب منزلهما المريح، وتشعر بالاعجاب والتقدير لهذه الآلات الحديثة التي توفر عليها الوقت... وبالسلام والراحة وسط هذا الديكور الرائع الذي يحيط بها. وقبل أن تنتقلا الى هذا المنزل، تركت لها عمتها حرية الاختيار لتنظيم المطبخ بالطريقة التي تعجبها، بينما انهمكت هي في رسم وتنفيذ الديكور لما تبقى من غرف البيت، الذي يتكون من غرفة جلوس كبيرة، وغرفتي نوم.

وغرقت تينا في أكوام الكتيبات والاعلانات الخاصة بأدوات المطبخ، حتى اذا انتهت وعمتها من تأثيث البيت، كانت كل منهما معجبة تماما بالمجهود المبذول.

أجالت تينا بصرها في غرفة الجلوس التي تغير شكلها بعدما غطيت أرضيتها بسجادة خضراء بلون الغابات زينتها عمتها في الوسط بجلد نمر وصاحت مبهورة:

"صدقيني ياعمتي لو لم تكوني متعلقة بوظيفتك، لتمكنت من جمع ثروة ضخمة من تصميم الديكورات. لقد أحسنت عرض كنوزك وتحفك بطريقة رائعة!"

وابتسمت عمتها سعيدة بهذا الاطراء، بينما أخذت تينا تشير الى التحف الغريبة التي أحضرتها عمتها كريس دونيللي من البعثات المتكررة التي اشتركت فيها. هذان شمعدانان من النحاس الأصفر، تحولا ببراعة الى مصباحين حديثين غاية في الروعة على منضدة صغيرة من الخشب الهندي تجمعت تحتهما في تنظيم دقيق مجموعة عناقيد كريستال وقواقع دقيقة غريبة، اكتشفتها العمة في جزيرة من جزر المرجان في البحار الجنوبية.

وعلى أحد الجدران علقت مرآة في اطار ذهبي، تعكس صورة لأحد المساجد، وعلى الحائط الآخر بعض اللوحات المرسومة بيد مشاهير الفنانين، وبعض التماثيل الدقيقة - وكلها من البرازيل - توزعت بطريقة فنية تنعكس عليها الأضواء التي تدخل من النوافذ الطويلة المكسوة بالمخمل، والتي تنسدل عليها ستائر من حرير تايلاند. وفي فجوة في الجدار وضعت تمثالا نصفياً من الخشب أحضرته من النمسا، الى جوار شجرة على شكل تنين من الوبر المنقوش مثبتة الى نموذج مصغر لاحدى قدور ساحرات الغابات.

غرفة مثيرة، غريبة، لكنها تعبر في حق عن شخصية هذه المرأة التي صممتها، والتي تعيش حياة تتبدل باستمرار.

كانت كريس دونيللي معجبة جداً بنجاح ابنة أخيها في تصميم المطبخ وتنظيمه عكس تينا التي لم تعجب به للوهلة الأولى، لكنها عادت ووجدت أن أرضيته الرخامية البيضاء تتلاءم مع هذا القرميد الذي يكسو الجدار فوق الحوض، وأن صف القدور النحاسية، وفرن الطهي الذي تعلوه أيضاً قبة من النحاس أضنيا لمسة جمال مميزة على الغرفة.

لكن، وبعد مرور ستة أشهر على انتقال المرأتين الى المنزل، انتهت بهجة الاثارة التي نتجت عن هذا التغيير الجديد، وأصبحت المناظر مألوفة وعادية. لاحظت تينا بدء دلائل الحيرة التي تصيب كريس كلما حثتها ساقاها على الرحيل، ابتسمت وهي تضع طبقين على المائدة. ففي كل مرة كانت عمتها ترتجف وهي تحدثها بخجل عن مشروع رحلتها المقبلة، لكن تينا كانت تقابل كلماتها بهمهمات الاعجاب، لدرجة أن كريس لم تتصور أبداً أن الحديث لم يكن مفاجأة لها، ولم يخطر لها أنه خلال أسابيع القلق التي كانت تعاني فيها من تأنيب الضمير لتركها ابنة شقيقها الصغرى وحيدة في لندن، بينما هي تتجول في غابات افريقيا، أو تتسلق جبلا في البيرو، تكون تينا في تلك الفترة تعد لها معدات الرحلة لتتأكد من أن كل ما تحتاجه في رحلتها سيكون جاهزاً في لحظة الاعتراف، التي تأتي غالبا قبل أيام قليلة من موعد الرحيل. تينا تعرفها جيدا لدرجة أنها تتوقع تحركاتها قبل حدوثها بأسابيع، بل ربما قبل أن تكون كريس نفسها اتخذت قرارها النهائي بعد!

وبالفعل، كانت تينا تعرفها جيدا... تعرفها وتحبها،

بل أنها فخورة بهذه العمة النحيلة الرقيقة، التي ما زالت تحتفظ بشبابها كاملا، برغم اقترابها من الأربعين، والتي استطاعت بكفاءتها العظيمة أن تحتل مكانة عالية في ميدان علم النبات، بعدما تخصصت في اكتشاف النباتات الغريبة في الاماكن البعيدة والمجهولة من بقاع العالم. وكريس تعمل حالياً في حدائق كيو الملكية، وتشترك في بعثات علمية الى أماكن خطيرة وصعبة، متحدية الاخطار، بحثا عن نبات جديد تكتشفه، أو تضيفه الى المجموعة النادرة في كيو.

وكانت تينا المساعدة الأولى لها في العمل، لكنها كانت - على عكسها - تحب الاستقرار وتكره السفر. واستطاعت عمتها أن تحسن تدريبها، وتعليمها كل ما اكتسبته من خبرة، حتى بدأت تينا تثير الاعجاب في محيط العمل، وتشق طريقها في الدوائر العلمية الكبرى.

تركت تينا المطبخ، وألقت نظرة فاحصة على غرفة الجلوس المريحة الدافئة، قبل أن تعبر الغرفة الى النافذة لتلقي نظرة الى الخارج، محاولة اختراق برودة تلك الليلة من ليالي شهر مارس (آذار). رأت الباحات المضيئة تزدحم بركاب يرتدون الملابس الثقيلة، ورأت تينا أيضا رذاذ المياه القذرة التي نثرتها السيارات المسرعة على ملابس سيئي الحظ من المساكين العائدين سيرا على الأقدام الى منازلهم. ألقت نظرة سريعة على ساعتها، وبدا عليها القلق. فكثيرا ما تدعى عمتها الى الاشتراك في لجنة من لجان العمل في اللحظة الاخيرة قبل عودتها، لكنها أعتادت أن تتصل بها لتنبئها بتأخرها عن موعد العشاء. ولم يكن من عادة تينا أن تعود مع عمتها الى المنزل، بل كانت تسبقها دائما بنحو ساعة

حتى تتمكن من اعداد طعام العشاء. وعندما وصلتا الى كيو هذا الصباح، استدعى الرئيس كريس لمقابلته، وكانت هي المرة الأخيرة التي رأتها فيها اليوم. وقطبت حاجبيها. فكريس دونيللي تستطيع أن تتسلق الجبال، وتصطاد الوحوش، وتواجه المجهول في الاراضي التي لم تكتشف بعد، لكنها تصبح طفلة عاجزة في خضم حركة المرور في شوارع لندن. عضت تينا شفتيها وهي تتذكر حيرة عمتها وترددها لدى عبور الطرق المزدحمة. مدت يدها الى الهاتف، وقبل أن ترفع السماعة، مزق رنينه المفاجىء سكون الغرفة. ردت بلهفة:

"هالو. هنا تينا دونيللي."

"تينا."

وعرفت الصوت على الفور، صوت رجل واثق النبرات انه الدكتور أليكس ماكسويل صديق عمتها. وسألته بسرعة:

"أليكس. هل تعرف أين عمتي كريس؟ انا قلقة عليها. تأخرت عن موعدها، وأنت تعرف خوفها من حركة المرور!"

أجاب أليكس ماكسويل غاضباً:

"طبعا أعرف. حاولت مرارا أن أحذرها لكنها تضحك دائما من حرصي على سلامتها، ولعلها تعترف الآن بأنني كنت على صواب!"

وصاحت تينا بصوت قلق:

"لعلها تعرف الآن؟ أليكس ماذا تقصد؟ هل تحاول أن تخبرني أن عمتي أصابها مكروه؟"

وأجاب بسرعة محاولا تهدئتها:

"اطمئني. لا داعي للقلق. انه حادث بسيط. صدمتها سيارة على باب المستشفى تقريبا، ومن حسن الحظ أنني كنت في مناوبتي. طبيب الطوارىء يعرف أنها صديقتي، فأتصل

بي وأخبرني٠"
صاحت تينا بخوف:

"أرجوك أخبرني ماذا حدث بالضبط، وما مدى اصابتها؟"
قاطعها أليكس بصوت نافذ الصبر:

"كسرت يدها٠ ولكن حظها من السماء٠ على هذه المرأة أن تجد شخصا يعتني بها ويحميها من نفسها٠ وعليه أولا أن يحطم عنادها!"

وابتسمت تينا برغم اضطرابها عندما شعرت بالغضب والقلق في صوت اليكس٠ عرفت منذ سنوات أنه يحب عمتها، لكن كريس كانت تعلن دائما أنه ليس من العدل أن تتزوج رجلا سيجد نفسه وحيداً بعد فترة وجيزة من الحياة المشتركة٠ فهي امرأة مستقلة ترفض التقيد بالزوج والبيت٠

وشعرت تينا بالعطف عليه، وقالت مؤكدة:

"أعرف ما تشعر به يا أليكس، وأنا أوافقك على طول الخط! ربما في يوم ما، واذا لم تتعب من الانتظار، تشعر كريس انك على حق، لكنها الان في حاجة الى الراحة والهدوء٠ هل أستطيع أن أحضر الى المستشفى لأعود بها، أم أن الصدمة شديدة عليها، ولن تستطيع الحركة؟

وانتظرت الرد بقلق، فبالرغم من أن اصابة عمتها خفيفة كما يقول، الا انها لا تطيق ان تراها ملقاة جريحة ووحيدة في المستشفى!

زمجر الدكتور أليكس قائلا:

"صدمة؟٠٠٠ راحة؟٠٠٠ هدوء؟ حولت المستشفى الى دار للمجانين خلال الوقت القليل الذي مكثت فيه هناك٠ اقترحت عليها أن تبقى ليلة تحت المراقبة، لكن زئيرها المتواصل كان كافيا ليقنعني بضرورة عودتها الى البيت، من أجل

راحة المرضى الآخرين٠"

وتنهد وهو يواصل كلامه:

"عمتك، ياعزيزتي امرأة في غاية العناد!٠"

وضحكت تينا ضحكة ناعمة، وواصل كلامه بعد قليل منهيا الحديث:

"تينا٠ سنصل اليك بعد ربع ساعة٠ انتهت فترة عملي الآن٠ سأحضر عمتك معي في سيارتي الى المنزل٠"

شكرته بحرارة، وأكدت له قبل أن ينهي المكالمة أنه سيجد عشاء فاخرا في انتظاره٠

* * *

كان الثلاثة يجلسون في استرخاء، بعد عشاء شهي، في غرفة الجلوس المريحة، يحتسون القهوة٠ بدت كريس شاحبة اللون لكنها محتفظة بحيويتها التامة٠ جلست تينا الى جوارها على الاريكة البنية، وأمامها أليكس على مقعد وثير، وعلى شفتيه ابتسامة رجل يشعر بالاكتفاء بعد عشاء فاخر٠ أخذ ينظر اليهما في كسل من فوق حافة نظارته، وما لبث أن قال:

"ترى هل لاحظتما الشبه الشديد بينكما؟ من يراكما يعتقد أنكما توأمان!"

فضحكت كريس وقالت:

"هذه كلمات مؤثرة ياعزيزي٠ هل تعرف انني أحب فيك هذه الشهامة؟!

"أنا جاد في قولي! لكما البشرة الصافية ذاتها، ولون

الشعر الأحمر الذهبي الفريد ذاته، برغم أنكما تصففانه بطريقة مختلفة، والعيون الخضراء غير العادية ذاتها، المنحرفة بجاذبية طاغية حتى الطول والقوام متطابقان تماما!"

وانتقل بعينيه من واحدة الى اخرى، ثم نظر، برقة، الى كريس وقال:

"الاختلاف الوحيد بينكما، يكمن في طبيعة كل منكما. تينا تبدو كطفل مشرق لحظة استيقاظه من النوم، أما أنت ياعزيزتي فتجمعين كل اغراء الانثى الناضجة وغموضها."

زجرته كريس بحدة بعدما احمر وجه تينا خجلا:

"كف عن هذه المداعبات يا أليكس. أخجلت الطفلة. اذا لم تتصرف بأدب فعليك بالعودة الى بيتك. هل نسيت أني مريضة. كطبيب أنت تعرف جيدا ان عليك ألا تضايقني!"

تبادل اليكس وتينا النظرات، وأغرقا في الضحك. فمنذ ساعة واحدة، ثارت كريس لأن تينا تجرأت وطلبت منها الاستكانة والراحة، فأصرت أنها ليست مريضة، ولا تشعر حتى بأن ذراعها كسرت، ورفضت بشدة أن تعامل معاملة المرضى.

احمر وجه كريس خجلا لما تعنيه ضحكاتهما وحاولت أن تجد مخرجاً من هذا المأزق فقالت:

"في أي حال هناك أمور يجب أن نناقشها. لقد غير الحادث خططي تماما!"

ونظرت اليهما لتتأكد من اصغائهما وأضافت:

"بحق السماء، كيف يمكن أن أرحل بعد أسبوع الى الأمازون بهذه اليد المكسورة؟"

وخيم صمت مفاجيء بعد هذا السؤال. ثم، صرخ اليكس، وتينا في وقت واحد:

"ولكن... هذا مستحيل!"

زمجر اليكس، ورددت تينا:

"الأمازون... كريس؟"

شعرت كريس بالسرور للأثر الذي أحدثته، وقالت:

"انها آخر رحلة عظيمة على الأرض. وقد وقع علي الاختيار لأشترك فيها!"

وقبل أن يلتقط أحدهما أنفاسه ليقاطعها. واصلت كلامها بحماسة:

"أحدى الصحف اليومية الكبرى تمول رحلة الى نهري النيغرو، وأورينوكو لتختبر السفينة الطائرة في تلك البقاع. ويضم المشروع بعض الجغرافيين والمصورين، وأحد علماء الطبيعة والنبات. كاد يغمى علي من الانفعال عندما عرضوا علي هذه الفرصة. تصوروا رحلة طولها ألفا ميل في أرض لم يطأها رجل أبيض حتى الآن فضلا عن أنواع من النباتات الغريبة ستجمعها. ثم افسدت كل هذا بكسر ذراعي."

ونظرت باحتقار الى الضمادة التي تربط بها ذراعها، قبل أن تتجه الى اليكس وتسأله بصوت ضعيف، بحثا عن بصيص من الأمل:

"هل هناك أي احتمال في ان استطيع القيام بهذه الرحلة؟"

واذا كانت تينا شعرت في وقت من الأوقات بأي شك في مشاعر اليكس تجاه كريس، فقد تبدد تماما وهي تنظر إلي وجهه الهادىء لترى تأثير كلمات عمتها عليه. ورأت الغضب يتصارع في نفسه مع العطف، قبل ان يجيب بحزم مغلف بقلق حقيقي:

"لا أمل ياكريس... لا أمل!"

وكانت كريس تعرف هذه الاجابة مسبقا، لكنها

كانت تبحث عن شعاع أمل، فظللت وجهها الجميل سحابة من الحزن وخيبة الأمل عندما سمعت رده. رأى اليكس هذا، فامتلأ صوته بالحنان والعطف وقال مخففا عنها:

"كريس ياحبي لا تحزني، لابد وأن تأتي فرص أخرى. هذه الرحلة التي تسمينها آخر رحلة عظيمة على الأرض، لابد وأن تأتي أفضل منها خلال الأشهر المقبلة."

فقالت كريس بصوت ضعيف:

"ربما.. ولكن لن يكون هناك القائد كاراموروَ، الرجل الذي تمنيت دائماً أن أصحبه في احدى رحلاته. وها هي الفرصة تهرب مني بعدما حصلت عليها!"

وصاح أليكس في دهشة:

"ومن هو كاراموروهذا؟"

انحنت كريس الى الامام، وتحدثت بصوت أذهل تينا. كانت نبراتها تحمل من الاحترام والتقدير، مالم تتصور تينا أن تحمله كريس لأي رجل في العالم. قالت:

"انه السنيور رامون فيغاس، برازيلي من أصل أسباني وله خبرة واسعة في ميدان اكتشاف الغابات، كما انه اكثر الرجال جرأة في قيادة البعثات في الأدغال، ومن الاشخاص المعروفين في العالم. كانت عائلته واحدة من أولى العائلات الأسبانية التي استقرت في البرازيل منذ أجيال عديدة. اكتسب أكثر معلوماته عن الأدغال من أبيه الذي كان مستكشفا شهيرا هو الآخر. وأعتقد أن رامون انصرف الى شؤون أسرته بعد وفاة والده. أصبح هو كبير العائلة، فندرت رحلاته، وهذه واحدة من الرحلات النادرة، وكم كنت أتوق للاشتراك فيها!"

ورد اليكس:

"يبدو أنه رجل عظيم حقا، ولكن هذا الكلام لا يفسر لنا حتى الآن معنى اسم كاراموروا!"

وضحكت كريس وقالت:

"لا، ان له تفسيرا، فكلمة كارامورو تصور شخصية رامون فيغاس أكثر من أي كلام أستطيع أن أصفه به، أطلق عليه سكان الأدغال اسم كارامورو، ومعناه الرجل الناري، او رجل من نار. أنا أصدق تماما ما تصفه به أساطير الوطنيين هناك. ان له بالفعل شخصية بركانية!"

وقاطعها أليكس:

"اذن... ربما كان من حسن الحظ أنك لن تشتركي في هذه الرحلة، فوجود اثنين بهذا الطبع الناري في مكان واحد مثير للمتاعب، ولذلك ياقطتي العزيزة، من الأفضل أن تمكثي في المنزل!"

ورمقته كريس بنظرة عنيفة غاضبة، ثم تنهدت يائسة وقالت:

"حسنا. كلما أسرعت في الاتصال بالمدير لأخبره بما حدث، كان ذلك أفضل، لا شك في أنه سيصاب بخيبة أمل شديدة. قضيت معه طوال اليوم نضع الخطوط النهائية لخطة البحث عن حقيقة الاشاعات التي تدور حول طبيب وطني يعالج الناس بالاعشاب في الأمازون، وقد نجح في شفاء الوطنيين من مرض النقرس بمرهم مستخرج من نبات مجهول. وكنت مكلفة باحضار هذا النبات، لذا علي أن أسارع لاخباره بما حدث حتى يستطيع أن يجد شخصا آخر يحل مكاني!"

وخيم عليهم سكوت عميق، فقد كانت كريس برغم كل شيء تشعر بالضيق والألم لفكرة نقل الحادث الى السير هاتيمان، عالم النبات الشهير الذي ساعدها في الوصول

الى مكانتها العلمية الحالية.

أما أليكس فقد صمت، تعبيراً عن تمسكه برأيه بعدم قدرتها على السفر، وان كان ضيقه واكتئابه واضحين لاضطراره الى ارغامها على البقاء في لندن. جلست تينا تنظر اليهما وهي تتمنى لو كان في امكانها أن تجد طريقة لمساعدة عمتها.

وفجأة قطع أليكس الصمت. فسأل كريس:

"لماذا لا ترسلين تينا بدلا منك! انك تقولين دائما انها بارعة في عملها، وأنه لم يعد لديك ما تضيفينه الى معلوماتها. ستكون فرصة رائعة لها لاكتساب خبرة جديدة، حتى لو كانت غير قادرة على البحث عن أطباء الاعشاب."

وكان رد فعل تينا غريباً، ارتعشت بخوف ظاهر، ونظرت الى عمتها وقد اصفر وجهها، وانطفأت لمعة عينيها، وربتت كريس على يدها مطمئنة وقالت لأليكس بصوت هادئ:

"تينا لا تحب السفر بل انها تكرهه. لا أتصور أبداً أنه يمكنني أن اطلب منها الذهاب الى الأدغال. مجرد التفكير في شكل العنكبوت يجعلها مريضة."

ونظرت كريس الى جلد النمر في وسط الغرفة، وابتسمت وهي تمد ساقها لتضع قدمها على رأسه باطمئنان:

"أعتقد بأنها ترمي جلد الحيوان هذا الى الخارج اذا تأكدت أن أحدا لن يراها. أليس كذلك ياعزيزتي؟"

قالت هذه الكلمات، وهي تنظر الى تينا بحب شديد. لكن هذه الاخيرة هبت واقفة، وقالت بصوت واضح الرعشة:

"ساعد بعض القهوة."

واندفعت تحمل الصينية الى المطبخ!

وبعدما أغلقت الباب وراء خيالها النحيل، رفع أليكس

حاجبيه بدهشة، وكأنه يطلب مزيدا من الايضاح، فرفعت كريس يديها، وقالت بصوت يائس ردا على تساؤله الصامت:

"أنا أيضا لا أفهم، لابد أن يكون للأمر صلة بطفولتها غير العادية."

فقال أليكس وهو يبحث عن سيكارة:

"أخبريني بما تعرفين عنها!"

"حسنا، أنت تعرف طبعا أن والدها هو شقيقي دين. كان أحد علماء النبات الشهيرين، الى جانب حصوله على الزمالة من المعهد الملكي لعلوم النبات، وتوليه أرفع المناصب العلمية."

هز أليكس رأسه موافقا، بينما واصلت كريس كلامها:

"كانت زوجته مويرا ترافقه الى أي مكان يذهب اليه. كان يصر على ذلك، ولم تكن هي في حاجة الى تشجيع، كانت تحبه كثيراً. وعندما ولدت تينا اعتقدت بأن دين وزوجته سيتوقفان عن الترحال، ويستقران في منزل يجمعهما. أو على الأقل أن تبقى مويرا مع ابنتها، ويكتفي دين برحلات قصيرة يعود بعدها اليهما. ولكن لدهشتنا الشديدة لم يتغير شيء في طريقة حياتهما. وصارا يحملان الطفلة معهما الى أماكن غريبة وخطرة في كل انحاء العالم حتى بلغت السن التي يجب أن تذهب فيها الى المدرسة!"

وأطلق أليكس صيحة تعجب، بينما أومأت كريس برأسها مؤكدة ومواصلة كلامها:

"ومن الطبيعي أنها كانت تتلقى بعض المعلومات وثقافة عملية وهي تتجول معهما حول العالم. طبعاً لمتهما على اصطحابهما الدائم للطفلة، ولكنهما لم يريا أي غرابة في ذلك. وكانت اجابتهما على كل مناقشة واعتراض: "الاطفال يعيشون في كل مكان، وفي كل الأحوال والظروف وطفلتنا

في حماية كاملة."

وابتسمت كريس بمرارة واستطردت:

"وفعلا كانت الطفلة تعيش، بل وتنمو. وكانت طفلة جميلة وباسمة، سعيدة ومرحة. لكنها تحولت فجأة، وقبل أن تفترق عن والديها بقليل لتذهب الى المدرسة الداخلية الى شبح هادىء منطو. وحاولت بكل جهدي أن أجعل أيامها الدراسية سعيدة. كنت أزورها وأصطحبها معي كلما يسمح لها بالخروج. لكني لم أستطع أن أحل مكان دين ومويرا، فقد كانت تتوق شوقا اليهما. ثم..."

وفجأة انخفض صوت كريس ليصبح همسا، وانتقل اليكس الى جوارها، ووضع يده حول كتفيها. عرف الأفكار التي تزعجها حين رفع وجهها ورأى الدموع في عينيها. وفي صمت أخذ يحاول تهدئتها.

ثم قال:

"أعلم الباقي يا حبيبتي، لست في حاجة الى الاستمرار. توفي شقيقك وزوجته بالحمى في احدى القرى الهندية. وهكذا أصبحت وحدك المسؤولة عن رعاية تينا."

تنهدت كريس، وتركت رأسها تميل على كتف أليكس العريضة فربت على رأسها بحنان وهمس:

"يا حبيبتي، لو كنت تسمحين لي برعايتك... برعايتكما معا. تينا الآن في العشرين من عمرها، امرأة تقريبا. فالى متي تعتقدين أنه علي الانتظار حتى توافقي على الزواج مني؟"

وفي اللحظة ذاتها، ودون أي صوت، دفعت تينا باب المطبخ خلفها حاملة صينية القهوة. رأت الرأسين المتقاربين، وتوقفت مكانها. كانت على وشك أن تسعل سعلة خفيفة لتنبهما الى وجودها، عندما سمعت عمتها تتكلم بحزن

يائس اضطرها الى الصمت والاستماع:

"أليكس... لا أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال، تينا في حاجة الي. انها متعلقة بحياتنا المشتركة، أنا وهي. انها تحب هذا البيت، ولا تحلم بالرحيل مثلي، أو مثل والدها. منزلنا هو المكان الوحيد الذي شعرت فيه بالامان الذي لم تعرفه، لا أستطيع أن أتخلى عنها. هل تفهمني يا أليكس، ببساطة لا أستطيع أن أهجرها!"

وامتلأ صوتها بالدموع وهي تقول:

"انتظر قليلا ياحبيبي. حتى تقرر تينا ما تريد أن تفعله في حياتها، وعندئذ، واذا كنت مازلت تريدني، أتزوجك وأنا في منتهى السعادة."

لم تصدق تينا أذنيها. وخرجت كالمخدرة من الغرفة، عائدة الى المطبخ.

٢ - بداية الرحلة

ارتفع صوت الطائرة مدوياً وهي تدير محركاتها لتجري على مدرج مطار لندن، وكان دوي المحركات النفاثة يصرخ في أذني تينا: غبية، عمياء، أنانية، بلهاء". وملأت الدموع عينيها وهي ترسل نظرة أخيرة الى الشخصين اللذين تشعر نحوهما بكل هذا الحب، وبتأنيب الضمير، لكن الطائرة استدارت فجأة لتعترض نظراتها، وتستقر في طريقها الى ميامي، ومنها الى البرازيل، لتهبط في مطار مدينة مانوس حيث كان من المقرر أن تلتقي مع اعضاء الفريق الذي يشترك في ما أسمته عمتها "آخر رحلة عظيمة على الأرض".

استرخت تينا تماما في مقعدها، وأراحت رأسها على الوسادة الصغيرة. أغمضت عينيها، واسترجعت مرة أخرى تلك الأيام الأليمة التي سبقت رحيلها، تداعت الصور أمام عينيها وهي تسترجع الأحداث التي أخرجتها من حياتها الهادئة. وكادت تكذب نفسها: هل صحيح أن كل هذا حدث في أسبوع واحد، فقط منذ سمعت كريس تفضي بحبها الى أليكس؟

واهتزت الطائرة اهتزازة عنيفة أثر سقوطها في أحد المطبات الهوائية، وارتفع الضجيج حولها. ولكن ذلك لم يستطع أن يطغي على الامها النفسية التي كانت ترهقها.

كان رد فعلها الأول عندما استمعت الى صوت عمتها الهامس وهي تناجي أليكس، أن تراجعت بهدوء الى المطبخ، وهناك نظرت حولها في ذهول. امتلأ قلبها بالأسى ثم بالاحتقار لنفسها، ولأنانيتها. هذه الانانية التي جعلتها تتعلق بالمرأة التي بقيت طوال سنوات تمثل لها طوق النجاة، مضحية بسعادتها وسعادة الرجل الذي تحب وبالمستقبل العائلي والبيت والأولاد. وأخذت تينا تلوم نفسها. انها السبب في التفريق بين اثنين هما أحب الناس الى قلبها. ووضعت رأسها الملتهب على حائط المطبخ الرخامي البارد، لتهدىء الحمى التي تلهب عقلها، وترغمها على مواجهة الحقيقة المرة. ان حل مشكلتهما بين يديها. صحيح أنها لا تستطيع أن تنكر انها كانت تتمنى لو تبقى سنوات طويلة مع عمتها، شريكتين في العمل، سعيدتين معا. طالما اعتقدت أن كريس وهبت حياتها لعملها الذي أحبته. لكن يبدو أنها كانت مخطئة وواهمة. وشيئا فشيئا، كان عليها أن تتخلى عن أحلامها، وأن ترغم نفسها على وضع خطة جديدة، خطة بلغت من النجاح حداً أوصلها الى هذه الطائرة المتجهة بها الى مكان تعرف مسبقاً انها ستكرهه. ولكن... لا يهم. لا شيء يهمها الا النتيجة التي حققتها، وهي اجبار كريس وأليكس على تحديد موعد زفافهما بعد أسبوع واحد من عودتها.

وقطعت المضيفة عليها سيل خواطرها، قائلة:

"آنسة دونيللي، هل تريدين بعض القهوة؟"

"لا."

ردت بصوت بارد، صدم الفتاة في الحال. وبرغم شعورها بخشونة الرد الا أنها لم تستطع أن تعتذر لها. أدارت وجهها الى النافذة، ومرة أخرى عادت الذكريات تطاردها.

واخترقت الطائرة سحابة قاتمة، جعلت الغيوم حولها تتحول الى شاشة سوداء تستعيد عليها ذكرياتها، وكأنها ترى أحد الافلام السينمائية تعرض أمامها. انها تشاهد الآن رأس كريس بتاجه الذهبي الأحمر، معتمدا على كتف أليكس، ونظرة الذنب في عيونهما عندما عادت الى الغرفة في المرة الثانية، بصوت مسموع. ورأت نفسها في ردائها الأزرق، وقد نجحت في رسم ابتسامة عريضة على شفتيها، وسمعت صوت عمتها مرحبا:

"أهلا عزيزتي تينا، هل اعددت قهوة، انني في حاجة شديدة الى فنجان منها!"

ووضعت تينا القهوة في الفناجين الثلاثة، قبل أن تتجه الى عمتها قائلة:

"كريس، هل يمكن حقا أن أذهب بدلا منك الى تلك البقاع؟!"

وأمسكت أنفاسها قليلا قبل أن تواصل كذبتها:

"كم أتمنى لو أذهب الى هناك!"

وساد الصمت. وانتابت الجميع دهشة كاملة، ثم قالت كريس:

"ماذا؟ ذلك ممكن طبعاً، لكنني كنت أعتقد أنك تكرهين السفر. كما كنت تقولين..."

فقاطعتها تينا وهي تحاول أن تتصنع اللباقة:

"نعم أعرف ما كنت أقول. غيرت رأيي الآن، وفي اي حال فهذه تقاليد العائلة. أليس من الطبيعي أن يكون كل آل دونيللي من المكتشفين؟ عشت مستقرة في مكاني مدة كافية."

ورفعت يديها أمامها محاولة أن تزيد من اقناعهما، ونجحت في أن تكتم أنيناً صامتاً في صوتها وهي تستطرد:

"أنا الآن في مرحلة الشباب، وأشتاق الى أن أرى مزيدا من العالم. وأعتقد أنك تفهمين شعوري ياعمتي. أليس كذلك؟ لعل اللهفة الى المغامرة والحنين الى الترحال يجريان في دمائنا. هل يمكن أن تساعديني على القيام بهذه الرحلة!"

وفي الحال، بدت الحماسة الشديدة على وجه كريس وقالت:

"بكل سرور ياعزيزتي، اذا كانت هذه حقا رغبتك. كنت دائما أتمنى أن يأتي هذا اليوم. كنت أعتقد أنك تكرهين فكرة السفر."

وتحول تعبير وجهها الى الدهشة، وهي تردف:

"ولكن كيف حدث هذا التغيير المفاجىء؟ منذ لحظات عندما اقترح أليكس الفكرة، خيل الي انك ترفضينها بشدة، والآن تخبرينني أنك في غاية الحماسة للاشتراك في الوفد!"

ورأت تعبيرا على وجه تينا جعلها تنقل نظرها الى باب المطبخ، الذي كان ما يزال يهتز. ولكن قبل أن تصل الى الربط بينه وبين ما حدث، أسرعت تينا الى النافذة، وجذبت الستائر التي تحجب الجو القارس في الخارج وأشارت قائلة بحماسة:

"أنظري الى الطقس."

ثم أضافت بصوت مسرحي أخاذ:

"من لا يرفض أن يترك هذا الجو الى شمس البرازيل الساطعة، اذا سنحت له الفرصة؟!"

ونجحت الخدعة. منذ تلك اللحظة بدأ التخطيط او التحايل كما أطلق عليه الدكتور أليكس. فقد صدم بتجاهل كريس لقواعد الاخلاقيات وهي تعد تينا لتحل محلها لدرجة أدهشته. فقد رفضت أن تخبر السير هارفي هانيمان بهذا التبديل، وعندما اعترض اليكس قالت بصوت صارم:

"لا. لن نخبره الآن. انه راحل في الصباح الباكر الى الولايات المتحدة الاميريكية، وهذا هو السبب في أنني قضيت اليوم كله معه لأنهي كل تنظيمات الرحلة، وسأشرح له ما حدث بعد عودته!"

وعاد أليكس يعترض:

"وماذا عن بقية اعضاء الفريق، ألن تكون مفاجأة لهم أن يجدوا شخصاً غريباً عنهم تماما ينضم اليهم؟"

فاجابته كريس بصوت منتصر:

"لن يعرفوا فأنا لم أقابل احدا منهم، وتينا وأنا نحمل الاسم نفسه كريستينا دونيللي. لن ينتبه أحد للتغيير، وكل ما يمكن أن أطلبه من تينا هو الصمت والابتعاد قدر الامكان عن اعضاء الوفد."

وعبثا حاول أليكس أن يظهر الخطأ في سفر فتاة غير خبيرة في رحلة مثل هذه في قلب غابات الأمازون، وهي تحتل مكان مكتشفة لها سابق خبرة عالمية، ويبين لهما خطورة هذه الرحلة دون عين حارسة ترعاها، وأنه ليس من العدل أن تشترك في مغامرة يعتقد كل من فيها أنها محفوفة بالاخطار التي يمكن أن تصادفها في هذه الاماكن الغريبة. لكن اعتراضاته كلها ذهبت عبثا. فقد تمسكت المرأتان بمواقفهما باصرار وعناد.

وقطع على تينا حبل تخيلاتها صوت قائدة الطائرة وهو يقدم بصوته المرح فكرة للمسافرين عن ارتفاع الطائرة، وعن السرعة والطريق الذي تسير فيه. وشعرت تينا بالغضب الشديد وبالكراهية تجاه ذلك الطيار الذي يسرع بها الى محنة جعلت حلقها يجف ودموعها تتدفق لمجرد التفكير فيها.

لم يعرف أحد أبداً الأحلام المزعجة التي كانت تهاجمها

في طفولتها. كان قلبها مغلقاً باحكام على ذكريات طفولتها القاسية، على الأحداث المؤلمة التي ظلت منحوتة في عقلها حتى الآن، وعلى الأحداث التي دمرت سنوات طفولتها الأولى. فهي مازالت تذكر عندما كانت ملقاة في مهدها الصغير، المغطى بشبكة كبيرة تبعد عنها الحشرات. هذه الحشرات الهائلة التي تظل تحوم حولها باصرار، وتبذل كل طاقتها بحثا عن منفذ تتسرب منه اليها. وفي مكان آخر وربما بلد آخر تماما كانت تجد نفسها مرة أخرى تحت مظلة بيضاء تحميها، لكنها لم تكن تجرؤ على أن تغلق عينيها من الخوف من هذا العنكبوت الأسود، ذي الشعر الكثيف، الذي يتدلى من أحد الأركان بالسقف، محملقا فيها، وكأنه يتوعدها ويهددها. كانت تستطيع الصراخ، لكن أمها كانت مشغولة عنها دائما لدرجة تمنعها من الحضور لانقاذها. الوحيد الذي كان يدركها، شخص مجهول أسود اللون، وكانت تعرف بخبرتها أن ذوي الوجوه السوداء، لن يفهموا صرخاتها، ولن يقدروا مخاوفها.

أصوات الحيوانات أيضا تحتل جزءا كبيرا من كوابيس طفولتها. زئير الأسد، وأصوات النمور العميقة الصادرة من اعماق حناجرها. حفيف الثعابين الزاحفة المتوعدة، والمتحركة حولها دائما. كل هذه الاشياء تعرفها، وتعرف أكثر منها، كلها تتجمع وراء الشبكة التي تحميها من الحشرات، في انتظار اللحظة التي تنقض عليها!

أما خوفها الأعظم، فقد كان على والديها. هذان السعيدان اللذان يسيران، يضحكان ويثرثران في قلب المنظر الاسود خارج شبكاتها، يبتسمان لها ويربتان على رأسها في الأيام الباردة التي كانت تحاول فيها أن تعبر لهما عن مخاوفها الطفولية، لكنها كانت تعرف انه ذات يوم سيتغلب

عليهما هؤلاء الأعداء المتربصون! وبعد سنوات، عندما انهارت عمتها أمامها وهي تنبئها بموتهما في مكان ما في قلب الأحراش، لم يكن ذلك غريبا عليها. بدا كأنه نهاية متوقعة، فقد كانت تعرف أنه بطريقة او بأخرى ستتغلب عليهما قسوة الادغال الوحشية، تماما كما سيحدث لها. فهذا هو المصير الذي ينتظرها اذا ما عادت مرة أخرى الى الغابات!

وارتعدت. تجمدت الدماء في عروقها، فمنذ اللحظة التي قررت فيها أن تأخذ مكان عمتها في الرحلة، حطمت الحساسية أعصابها، وتسلط الخوف الشديد والبرودة على قلبها لكنها أخفت مخاوفها بمهارة، فان أي سقطة تظهر الحقيقة جديرة بأن تحطم كريس و أليكس، ربما الى الأبد. وهكذا نجحت في أن تمنع الشك من أن يتطرق اليهما. فلم يكتشفا أبدا أنه تحت ستار السعادة والاثارة التي تظهرها، تخفي كل هذا الخوف الذي يدمر عقلها ويقتل أحاسيسها، حتى أنها عندما خطت أولى خطواتها من الطائرة في مطار مانوس، شعرت وكأنها تحولت الى قوقعة أغلقت أبوابها على عقلها تماما!

وردت على وداع المضيفة بهزة صامتة من رأسها، ونزلت من الطائرة. ففوجئت بدرجة الحرارة العالية، وجمعت حقائبها، واستقلت تاكسيا، أعطته عنوان الفندق الذي ستقابل فيه بقية طاقم الرحلة، ولم تفارقها ذكرياتها. أخذت تثقل عليها أكثر، وأكثر...

عندما كانت الطائرة تدور حول المدينة استعدادا للهبوط، ألقت تينا نظرة الى أسفل. رأت الادغال الكثيفة الخضراء التي لا تنتهي، تحتضن المدينة تماما في أحراشها الخضراء. وأيقظ ذلك بكل قسوة ما اختفى في أعماقها من

مخاوف طفولتها الأولى.

بعد ساعة، وبتأثير تكييف الهواء في غرفتها الفاخرة في الفندق، بدأت تشعر بالانتعاش، خصوصا بعد حمام بالماء البارد، ارتدت ثوبا من القطن الأبيض بلا أكمام، واتخذت طريقها هابطة السلم الى قاعة، وأسرع اليها الساقي وهو يرى ترددها في اختيار المكان الذي تريده، فحاولت أن ترسم ابتسامة على وجهها لكن شفتيها كانتا جافتين، وخرج صوتها باردا وقاسيا، وقالت للساقي:

"أود أن أقابل السيد فيغاس وجماعته!"

ولمعت عيناه بالسرور وهو ينحني أمامها قبل أن يطلب منها أن تتبعه، وقادها مباشرة عبر الغرفة الى مائدة بجوار النافذة العريضة يجلس حولها مجموعة من الرجال يبدو عليهم أنهم من الشخصيات الراقية كانوا ينتظرون الطبق الأول من طعامهم وهم يتحدثون، وخيم عليهم صمت مفاجىء عندما وصلت تينا اليهم. وقفوا جميعا، بنصف ابتسامة، ينتظرون أن تتكلم.

قالت بلا تردد:

"تينا دونيللي، عالمة نبات، انا مدعوة الى الانضمام الى جماعة السيد فيغاس!"

وفي الحال امتدت الأيدي لتقدم لها مقعدا وبدأ سيل من كلمات الترحيب ينهال عليها وللحظة بدأ الجميع يقدمون أنفسهم لها في وقت واحد، ثم تقدم الرجل الذي يقف الى يمينها ليسيطر على الموقف، وقدم لها نفسه، ثم بدأ يقدم الآخرين. أخبرها بلهجة أميركية أصيلة أن أسمه فيلكس كريللي وأنه عالم طبيعة. وأعجبها وجهه النشيط المريح، ونظراته الحارة المرحبة بها، والتي تطلب منها أن تبتسم،

ثم قدم لها شابين عملاقين، صغيري السن، كانا يبتسمان مرحبين بها عبر المائدة:

"لارس و أندرزبريكلنغ، مصوران من سكندنافيا. ولسوء الحظ انهما لا يجيدان الانكليزية."

وأحنت رأسها للشقيقين صاحبي الابتسامة الواسعة بينما واصل فيلكس كريللي قوله: وهذا زميل انكليزي، مواطن لك، مايلز ديبريت عالم في الجغرافيا. أحنى الرجل الطويل، ذو المظهر المدرسي، رأسه بتحية وقورة، وانتقلت عيناها الى الرجل الذي يجاوره. كان له شعر رمادي، وعينان أليفتان فريدتان وحياها بصوت يدل على أنه اسكتلندي أصيل. وعرفت اسمه: جوك ساندز.

خلال هذا التعارف، كانت تشعر بالقلق ازاء نظرة محملقة من رجل كان هو الأخير في اللقاء. وأصابتها الدهشة عندما رأت حجمه الهائل وكتفيه العريضتين، وقد انحنى بطوله الذي يزيد على مترين ليهز يدها. نظر اليها فاحصا. وكان عليها أن تستجمع كل قوتها حتى لا ترتعد وهو يغلق يده على يديها بأصابعه الضخمة التي يغطيها الشعر الأشقر. وشعرت كأنه يغرس في جلدها!

قال بثقة: أما أنا فاستطيع ان اقدم نفسي. اسمي ليبر انستون، اميركي كما لابد لاحظت من لهجتي، متمرس في ما يزيد على العشرات من رحلات الغابة هذه، يمكنك أن تبقي الى جواري، فانا اعرف كل ما يجب أن يعرف عن مناطق الغابات وأخطارها، اضافة الى أنه سيكون من دواعي سروري أن أرعاك!"

ونجحت في أن تخلص يدها من قبضته دون أن تظهر التغيير الذي أصابها نتيجة تأثير هذا الرجل عليها،

لكن صوتها كان ثابتا عندما أعلنت ببرود:
"أعتقد أنني لن أحتاج الى عرضك هذا ياسيد برانستون. وفي اي حال أنا لست غريبة عن الأدغال، ولم أحضر الى هذه البعثة وفي نيتي أن أجعل من أي شخص حارساً لي.."

وكانت كلماتها متعمدة تماما، تهدف الى ايهام مرافقيها بانها خبيرة مجربة في الرحلات والمغامرات!.. ونجحت خطتها بطريقة باهرة، في الحال. تغير مسلكهم من الرقة والمجاملة، الذي نبع من شعورهم بوجود أنثى جميلة بينهم، وظهرت عليهم علامات تعجب اختلفت درجتها.. فلو أن قطة صغيرة أظهرت فجأة مخالب دامية، وأظافر مدمرة، ما انتابتهم الحيرة أكثر مما حدث لهم عندما فوجئوا بهذه الفتاة البريئة المظهر، الرقيقة مثل صورة على حائط، الجميلة بطريقة باهرة، وهي تتكلم بصوت لاذع كالسوط، رافضة عروضهم الطيبة. وتأملتهم تينا وهي ترى خيبة أملهم. لم تكن ترغب حقيقة في أكثر من أن تنال ثقتهم وترتبط بهم وبشهامتهم، فهم من القوة بحيث يستطيعون حمايتها، لكن كان عليها أن تحتفظ بسرها، لم تجرؤ على البوح بأنها مزيفة، لذلك لم يكن لديها الخيار، يجب أن تبني جداراً من التحفظ بينها وبين زملائها خوفا من أن يوجهوا اليها ولو الحد الأدنى من الاسئلة. وبذلك تضمن بقاءها وحيدة، ترتكب أخطاءها بعيدا فلا يكتشفها أحد!

كان ثيو برانستون الذي استعاد حالته الطبيعية اول المتكلمين:

"رائع رائع.. هذه هي الروح المطلوبة!"

وصفق بيده على ركبته بشدة، وأردف بصوت عال:
"انني أحب الأشخاص الذين يتمتعون بهذه الروح نعم نعم!"

واقترب الساقي ومعه الطبق الأول من الطعام. وقوبل بالترحاب، فقد ساعد ظهوره على كسر الصمت الحرج الذي خيم عليهم.. وأخفت تينا قلقها وراء قناع من اللامبالاة، أما ثيوبرانستون فان عينيه اللامعتين لم تجدا أى تعبير على وجهها الصامت يدل على اهتمامها بكلامه، أما بقية الرجال فقد كانوا جائعين. وتشاغلوا بالتهام الطعام، وبالتدريج أعادوا تنظيم أنفسهم حول المائدة، وواصلوا أحاديثهم التي انقطعت.. وجلست تينا بين ثيوبرانستون وزميله الأميركي فيلكس كريللي، ولم تظهر أي رغبة حقيقية في الاشتراك في أي حديث معهم. لكنها لم تستطع أن تتجاهل السؤال المباشر الذي وجهه اليها فيلكس كريللي.

"آنسة دونيللي، هل هذه هي المرة الأولى التي تخرجين فيها في رحلة مع قائد بعثتنا السيد فيغاس، أم أنك كنت سعيدة الحظ واشتركت معه في رحلة سابقة؟"

وهزت تينا رأسها بهدوء، وقالت بمظهرها الواثق: "كلا.. لم يحدث لي هذا الشرف من قبل يا سيد كريللي، ربما أمكنك أن تقدم لي بعض المعلومات عنه!"

امتلأ وجه فيلكس كريللي الهادىء بالحماسة وقال:
"الحقيقة أننا لم نقابله بعد.. لم يقابله أي منا حتى الآن، لكننا جميعا نعرف الكثير عن الأساطير التي تحكي عن قدرته على قيادة البعثات العلمية خلال الأراضي التي يفشل فيها كثير من الرجال الأقل منه خبرة.. اننا، ويمكنني أن أتحدث بالنيابة عن زملائي - نعتقد أنه شرف كبير لنا أن يختارنا بنفسه لنصحبه في هذه الرحلة!"

اختارهم؟: وضعت تينا معلقتها في الطبق، وأمسكت بفوطتها لتخفي فيها رعشة يديها، وتساءلت: هل معنى

ذلك أن رامون فيغاس يعرف عمتها كريس؟ وان كريس في غمرة أعمالها المحفوفة بالمخاطر والتي تجعلها تنسى كثيرا من الناس عندما تكون مستغرقة في أبحاثها - استطاعت بسوء حظ لا يصدق أن توقعها في ورطة مع رامون فيغاس؟!

ولاحظ برانستون اضطرابها، واحتفظ بذكائه الماكر بهذا الحادث في ذاكرته، فقد يحتاج اليه في المستقبل.. وفكر في أن الامور لا تسير على ما يرام مع الآنسة جبل الجليد! لقد انطبعت في نفسه الآن صورتها التي تبدو وكأنها لا تبالي باي شيء، وارتفع صوته بحدة، وهو يقتحم الحديث، معارضا رأي فيلكس كريللي حول رامون فيغاس الغائب؟

"ليس صحيحاً انه اختارنا. فقد ارسلتني المنظمة التي أعمل فيها الى هذه البعثة، لأنها اعتبرتني أفضل رجل لديها يقوم بهذه المهمة. بدأت أشعر بالاشمئزاز من سماع "قصائدكم" في مدح فيغاس. اسمع ياكريللي، انني أعتقد انه مجرد برازيلي آخر شق طريقه في هذه الانحاء، وهو يتشابه مع كل الرجال المتغطرسين من مواطنيه. انني لا أحتاج الى اي شخص يقودني وسط الأدغال، كلنا ذهبنا في بعثات أخرى بغير وجوده او قيادته أحسب أن رجلا يحمل لقب كاراميرو سيحتاج الى أن يكون قادرا على اثبات جدارته به ولسوف أنتظر باشتياق لأري كيف يفعل ذلك!"

ومسح بنظراته المقاتلة المائدة، منتظرا أن يعارضه أحد لكن شيئا من ذلك لم يحدث، بل واصل الشقيقان بريكلينغ طعامهما، متجاهلين تماما المبارزة التي أعلنها زميلهما، وظل مايلزديبريت محتفظا بوقارة الانكليزي وهو يتحدث مع الاسكتلندي جوك سوندرز الوحيد الذي انبرى للمعارضة كان فيلكس كريللي، الذي قال بصوت حاد ينطق بثقته في

كل كلمة يقولها:

"أنا لا أوافقك يا برانستون! السيد فيغاس مشهور جدا بخبرته، ويجب أن نكون جميعا شاكرين له قيادتنا في أخطر رحلة في العالم!"

رد عليه برانستون بابتسامة غاضبة:

"سنرى. فقريبا ينبغي عليه أن يثبت لنا جدارته. سيعود اليوم من وراء النهر، حيث كان يعد المؤونة والوقود، وينتظر أن يصل الى الفندق الليلة، وغدا في الموعد نفسه سنكون في مكان ما في وادي الأمازون.. وسنرى اذا كان السنيور فيغاس يستحق حقا لقب "رجل من نار"، أم أن شهرته تعيش فقط في خيال بعض البسطاء من الهنود الذين أطلقوا عليه هذا اللقب."

وبوجه متجهم، دفع طبقه بعيدا، وترك المائدة.. تاركا وراءه صمتا حرجا.

* * *

استيقظت تينا مبكرة صباح اليوم التالي، بعد ليلة مضنية قضتها نصف نائمة. وكانت سعيدة لأنها ستترك الفراش وتسرع لتستعيد حيويتها بحمام بارد، ثم ارتدت ثوبا بلا أكمام من القطن، ذا لون أزرق ثلجي ليتلاءم مع المظهر الذي تريد أن تظهر به، وجلست أمام المرآة تصفف شعرها، وزمجرت بغيظ وهي تنظر الى صورتها: هذا

الصباح ستواجه محنة مقابلة رامون فيغاس وهي تحمل الاكذوبة الكبرى التي بدت لها بسيطة وهي في انكلترا، ولكنها الآن في مانوس بدت وكأنها تمثل مشهدا يحتاج الى اتقان٠٠ فأمام الاسئلة التي تتوقع أن توجه اليها، لن يكون امامها الا الكذب٠ وبعزيمة قوية، أبعدت عن فكرها تأنيب الضمير الذي يعذبها، مستعينة على ذلك بتذكر وجه عمتها الضاحك ونظرات أليكس المندهشة٠ لقد كانت سعادتهما كافية في نظرها كي تقدم على أية أكاذيب ستضطر الى ذكرها لرامون فيغاس!

كانت غرفة الطعام خالية، لكن الساقي أسرع يعد لها مقعدا أمام مائدة بجوار النافذة، وقدم لها قائمة الطعام٠ طلبت قهوة وساندويتشا مع عصير الكريب فروت، وفي اللحظة التي بدأت فيها تناول الطعام امحت قامة ثيوبرانستون الضخمة في مدخل الباب وشعرت بخوف يدفعها الى أن تنهض وتهرب، ولكنه كان أسرع منها، وألقى بجسمه العملاق على المقعد المجاور لها٠

"صباح الخير يا آنسة دونيللي٠ انا سعيد جدا، لم أكن أتوقع أن أجدك هنا في هذا الصباح الباكر٠٠ هل تسمحين لي بأن أشاركك المائدة؟"

"يبدو أنه ليس لي الخيار!"

لكنه كان محصنا ضد الاهانة فطلب فطوره بكل ثقة، وكان منظره وهو يبتلع الطعام بسرعة كافيا كي يفقدها شهيتها فدفعت الصحف جانبا، وحاولت النهوض٠ وقبل أن تستأذنه منصرفة، رفع ذراعه باصرار:

"هل سمعت آخر الاخبار؟"

"أية أخبار؟"

أشار لها بيده الى الكرسي وقال: اجلسي سأخبرك كل شيء!"

لم تكن متأكدة اذا كان ذلك مجرد خطة منه ليؤخر رحيلها لكنها لم تجرؤ على أن تترك أية تفاصيل تبعدها عن الأحداث٠٠ استجابت وهي تشعر بالاشمئزاز منه، بينما أطلق هو ضحكة سعيدة، ورشف رشفة أخرى من القهوة قبل أن يقول:

"وصل السيد فيغاس مساء أمس في وقت متأخر٠ وكان الجميع بمن فيهم أنت قد آووا الى فراشهم، وهكذا لم يجد غيري٠ فألقى الي بتعليماته لابلاغها اليكم: "انه يريدنا أن نجتمع به في الصالون الخاص به في الساعة التاسعة والثلث تماما، كي يقدم الينا ملخصا للرحلة، على أن تكون الساعة الثانية عشرة ظهرا هي ساعة التحرك٠ وعلى ذلك يجب أن تكون كل المعدات والأدوات جاهزة وموجودة عند بوابة الفندق في الساعة الحادية عشرة، كي تنقل الى السفينة.

وشعرت تينا بالخوف: ان محنتها الحقيقية على وشك أن تبدأ، وبعد ما رمقها ثيو بنظرة ماكرة اضاف:

"لكن ذلك ليس كل شيء٠"

قالت تينا وهي تضرب الأرض بقدمها بصبر نافذ: حسنا، وماذا أيضا؟"

"لم يصل السيد فيغاس وحده فقد اصطحب معه سيدة أخرى، اسمها السيدة انتزغارسيا، برازيلية رائعة٠ وصدقي أولا تصدقي أنها طبيبة! وانا أتوقع موجة من المرض تحتاج أعضاء الرحلة خلال الأسابيع القليلة القادمة، اذا كان علاج السيدة انيز لهم سيكون هو المكافأة لذلك عليك أن تنتبهي جيدا يا آنسة دونيللي، فقد أصبحت لك الآن منافسة خطيرة٠"

ولم تهتم تينا بالرد، بل حدجته بنظرة احتقار، ووقفت وتركته يضحك وحده على فكاهته التي ألقاها وكانت كلماته لا تزال ترن في اذنها وهي تسرع الى غرفتها: ان الساعة التاسعة والثلث، هي اللحظة التي يقرر فيها القدر متمثلا في رامون فيغاس مصير خطتها·· يجب أن تبدو معلوماتها على درجة من الكفاية تقنعه بأنها قادرة تماما على المشاركة في الرحلة·

ربطت معداتها في أصغر حجم يمكن، وتركت كل شيء غير ضروري، ثم اتصلت تليفونيا بادارة الفندق لترسل خادما يحمل حقائبها الى أسفل، حيث تكون معدة في الساعة الحادية عشرة، كما أخبرها ثيو· ولم تكن الساعة قد بلغت التاسعة، فقررت أن تكتب رسالة الى عمتها قبل أن تبدأ الرحلة· ووجدت صعوبة في كتابة الرسالة· كانت تنوي أن تعبر عن شوقها ولهفتها وتوقعاتها للرحلة التي ستبدأ اليوم، لكنها شعرت بالكلمات تخونها·

وامتلأت الأرض حولها بالأوراق التي مزقتها قبل أن تكتب الرسالة أخيرا· وحملقت في ساعتها·· ان وقت اللقاء الحاسم أزف· وبتردد وضعت الخطاب المحتوي على القليل الذي استطاعت أن تكتبه، في ظرف ودسته في جيبها لترسله بالبريد· لم يعد هناك وقت تضيعه في أكثر من ذلك، فقد دقت ساعة الصفر·

عندما وصلت الى الغرفة التي دلوها اليها، وقفت مترددة فوق السجادة الثقيلة التي تكسو الممر، تتساءل هل تطرق هذا الباب الخشبي الأسود، أو تدلف بهدوء عندما سمعت همهمة أصوات من داخل الغرفة عرفت منها ان الجميع حضروا فعلا، فابتلعت خوفها،

واستجمعت شجاعتها، متوقعة أن يحدث دخولها ضجة باعتبارها آخر الحاضرين·

لكن دخولها لم يحظ بأي اهتمام، ماعدا نظرة سريعة ذكية من الرجل الذي كان واقفا يشير الى خريطة تغطي تقريبا الحائط كله خلفه، وجلست في أول مقعد صادفها، وراء الموجودين جميعا، وتنهدت بعمق وراحة، لأن دخولها المتأخر لم يسبب أي ارتباك للمجتمعين والمستغرقين في الاستماع·· وتابع المتحدث كلامه بصوت واضح: ستكون رحلتنا خلال أخطر المناطق وأكثرها رعباً في البرازيل وفنزويلا، وسننتقل اليها في احدث وسائل المواصلات سنغزو أماكن لم يسبق اقتحامها، ومساقط مياه غير ظاهرة على خرائط حتى الآن في العالم كله أماكن لم تعرف المدنية··"

لم تكن تينا تتابع كلماته بقدر ما كانت تحاول الحكم على شخصيته·· وسقط قلبها بين ضلوعها، فلو أنها كانت تضع بعض الآمال على أن رامون فيغاس سيكون شخصية متعاطفة، يمكن استمالته بحديث ناعم، فان آمالها كلها انهارت الآن بعد النظرة الأولى·· كان شكله يدل على شخصية الرحالة القاسي، خصوصا شكل الفك بخطوطه المستقيمة، وكلما تحدث ألقى بمهارة شديدة بتلميحة براقة تسقط على كل واحد من المستمعين على حدة، فيشعر كل منهم بأنه المقصود بالحديث، فينتبه اليه بلا مجهود·· ولاحظت تينا أنه قادر على تحريك الناس أمامه وكأنهم قطع في لعبة الشطرنج دون أن يشعروا: وكانت عيناه زرقاوين مدهشتين· وأشعة الشمس تسقط من خلال النافذة فوق رأسه الأسمر، ذي الشعر الاسود اللامع·· وبدت منه حركة مفاجئة رشيقة وهو يشير

بعصا الى الخريطة الموجودة خلفه، مبينا خط سير البعثة..

كان ما يزال يتكلم، ولكن تينا لم تكن منتبهة الى كلامه، وقد جذبتها عضلاته القوية البارزة تحت قميصه الحريري. وتلميحاته السريعة الذكية التي لا يفوتها شيء، والتي تخلق حوله جوا يفوح بالثقة في قدراته، والتي تخونها نظراته الملولة الشاردة أحيانا الى خارج النافذة، وكأنه بوجوده في الغرفة ابتعد كثيرا عن الحرية، كل هذه المميزات كانت ترسم شخصية حيوان يائس من امكان الهرب من قفص مغلق!

شرح فيغاس مراحل الرحلة وما يحف بها من اخطار وانتظر قليلا، ليرى تأثير كلماته عليهم.. وعندما شعر بانهم تواقون لمعرفة المخاطر التي سيواجهونها، قال باصرار:

"اذا كان بينكم شخص يريد أن ينسحب، او انه يشك في قدرته على القيام بالرحلة، أرجو منه بكل أمانة أن يعلن ذلك الآن. وأرجو ألا يشعر بالخجل من اعترافه بالخوف، والواقع أن هذا الاعتراف يحتاج الى شجاعة لكن يجب أن أؤكد أنه بمجرد أن تقلع السفينة المحلقة فلن تكون هناك عودة مهما كانت الظروف، كل شخص في هذه الرحلة يجب أن يكون قادرا على الاستمرار، حتى اذا اضطر الى البقاء وحيدا في قلب الادغال، فأنا لا أنوي أن أحمل معي سياحاً! وانما كل فرد ستكون له وظيفة يقوم بها، واذا كان هناك من لا يستطيع القيام بالمهمة التي ستوكل اليه.. فليقل ذلك الآن!"

وبدأ اعضاء الوفد يتناقشون، وقرر فيغاس أن يترك لهم فرصة لاستيعاب كلماته، فترك المسطرة على المنضدة وسار وعلى فمه ابتسامة مريحة في اتجاه امرأة كانت تجلس بعيدة عن الباقين ولم تكن تينا قد وجدت الوقت لتفحص تلك المرأة، وان ادركت أنها لابد أن تكون السيدة

انيزغارسيا.. كما انها لم تجد وقتا لتلاحظ شعرها الاسود المنقسم الى قسمين، والمنسدل على خديها الناعمين، ولا فمها القرمزي الذي ترفعه في اغراء واستدارت لتندمج في المحادثات التي دارت حولها..

واكتشفت ان بقية أفراد البعثة تقابلوا مع الأشخاص الذين قابلتهم بالأمس، وقام فليكس كاريللي مرة أخرى بمهمة التعريف لكن في غمرة الضجيج ضاعت الأسماء وعرفت أن الوفد يضم ١٨ شخصا. سألها القبطان جوزف روجرز:

"هل أستطاع رامون أن يخيفك، بتحذيره المبالغ فيه يا آنسة دونيللي؟"

كانت ستعترف بذلك. لكن عقلها الواعي أدركها بسرعة، فنطقت بطريقة خالية من الحرارة:

"لا. طبعا لا ان شيئا لن يجعلني اخاف هذه الرحلة وأعتقد أن السيد فيغاس، احب أن يقدم نفسه الينا بطريقة مسرحية بعض الشيء، لكني أجد له عذرا من أصله اللاتيني، الذي يترك أثره على أحكامه بوضوح. ونحن جميعا هنا في كل حال اناس لنا خبرتنا، ومن الافضل للسيد فيغاس أن يركز اهتمامه على من كانوا غرباء عن الغابات."

"هل هذا صحيح؟"

جاء الصوت من مكان ما حولها، والتفتت تينا بحثا عن صاحب الصوت.. فوجدت نفسها امام رامون فيغاس، وفتح فمه الصارم ليوجه كلمة احتقار غاضبة، لكنه عاد فأغلقه، واستدار يوجه كلامه الى المجموعة التي احتشدت وراءه:

"أعتقد أيها السادة أنكم أعددتم كل التجهيزات الضرورية، فاذا كان كل منكم على استعداد لاتباع تعليماتي، فهل لكم أن تتوجهوا الى غرفكم، وتحضروا معداتكم لنقلها

الى السفينة المحلقة؟ ان لديكم وقتا لغداء سريع قبل أن نبدأ رحلتنا ظهرا أرجوكم الا تتأخروا."

وبعدما خرجوا أمسك بذراع تينا، فوقفت وهي تعاني من النظرات التي وجهت اليها. انتظرت في صمت حتى خرج الرجال من الغرفة، ولكن عندما أغلق الباب بعد آخر رجل، خلصت ذراعها من يده بنظرة استنكار، وقبل أن تنطق، اذا بعاصفة من الضحك الساخر تذكرها بوجود انيزغارسيا في الغرفة!

قالت أنيز:

"رائع يا سينيوريتا." وصفقت بيديها، ثم استطردت:

"طوال حياتي لم أجد الشجاعة لأتحدى رامون بالطريقة التي أقدمت عليها، مع انني تمنيت كثيرا أن أفعل ذلك هل تسمحين لي بأن أبدى اعجابي بجرأتك!"

وظل صدى ضحكات انيزغارسيا يتردد طويلا في الغرفة بعدما أغلقت الباب وراءها، تاركة تينا وحدها مع الرجل الذي كان في هذه اللحظة ينطبق عليه تماما لقب كارامورو، فقد كانت النار تشتعل فيه، بينما أشعلت الشمس التي تلمع من خلال النافذة خصلات شعره، وجعلتها بلون الكهرمان.

وارتفعت ذقن تينا، وأغلقت فمها لكنها أخفت الخوف في عينيها باصطناع البرود، وبدا هو وهي كمقاتلين في الحلبة، النار في مواجهة الجليد.. ومرت دقيقة مشحونة بالغضب الصامت، دون أن يحرك رامون عينيه عن عينيها، ثم لوح بمجموعة من الاوراق أمامها. وكانت فرصة لتجد العذر لتحويل نظراتها عنه. ثم قال:

"أعتقد من الأوراق الموجودة معي، انك الآنسة كريستينا دونيللي."

وكان كلامه عاما، لا يحمل صيغة السؤال، لكنها أجابت:

"اعتقادك صحيح"

وضاقت عيناه، لكنها لم تسمح لنفسها بأن ترتعد وهو يراجع أوراقها. كان قناع الثقة يبدو وكأنه التصق بها، في الوقت الذي انتهى هو من التدقيق وكانت حذرة وهي ترى الحيرة في وجهه تحل محل الغضب وما لبث أن سألها مدققا:

"أنت كريستينا دونيللي عالمة النبات المشهورة؟"

وشعرت أنها لا تكذب تماما وهي تجيبه:

"هل من الصعب أن تصدق هذا يا سيد؟"

وكان قلبها يدق بشدة فتريث لحظات، ثم قال ببطء ولكن بصوت عال:

"لقد سمعت طويلا عن كريستينا دونيللي، وعن نجاحها في مختلف البعثات التي اشتركت فيها، وكنت في شوق الى الالتقاء بها، لكني لم أسمع أبدا ما يدفعني الى الاعتقاد بأنها متغطرسة او غبية!"

وفتحت تينا فمها لتعترض لكنه منعها. مردفا:

"ومن بين العديد من المكتشفين الخبراء الذين عملت معهم، وقاسمتهم رحلاتهم، لم يظهر واحد منهم حتى الآن استهانته بالاخطار التي نقابلها في عملنا، فاما انك امرأة خارقة الشجاعة بدرجة غير عادية، يا آنسة دونيللي، او انك امرأة عديمة الاحساس، الى درجة الاستهتار!"

وقطع كلامه، وانتظر قليلا، ثم استطرد:

"في كل حال الاسابيع القليلة القادمة ستكون كفيلة بالاجابة عن اسئلتي وأنا أتمنى باخلاص أن تكون فكرتي عنك عندما تنتهي الرحلة، فكرة عظيمة كما كانت قبل أن أقابلك!"

رفعت تينا رأسها، وردت على نظراته الغاضبة بنظرة

لا مبالاة وقالت:

"ان رأيك في شخصيتي لا يهمني اطلاقا، وحياتي سوف تستمر بغير تقديرك. ولكن لمجرد أن تعرف.."

وسارت في اتجاه الباب. لكنها توقفت لحظة ويدها على المقبض، اضافت:

"ستكون أنت أيضا موضع الاختبار كارامورو فهناك غير عضو في هذه البعثة يهمه التأكد من استحقاقك لهذا اللقب وربما في نهاية الرحلة يحتاج كل منا الى اعادة النظر في رأيه. وانطلقت مسرعة قبل أن ينطلق من فمه سيل من الشتائم.

٣ - الرسالة

ضغطت تينا قبضتها بشدة وتوتر، وهي تشعر بالاهتزازة الاولى للمحرك الآلي القوي للسفينة المحلقة وهو يهدر في داخلها. وكانت اللحظات التي سبقت تحرك السفينة مشحونة بالقلق. هل ستعمل بكفاءة؟ هل يستطيع ربانها تحريكها بنجاح، وهل ستتحمل هذه الكمية الكبيرة من الآلات، والأدوية والمعدات، وأجهزة صيد السمك، والكبريت والذخيرة الحية، والحصى، التي سيتعاملون بها مع الهنود الحمر؟ هل يتحمل كل ذلك، هذا الزورق الأسود الهائل الذي يشبه الضفدعة، والذي سيكون مسكنا لهم على مدى اربعة اسابيع. تركت تينا عينيها تلتصقان بالنافذة والآلات تهدر متصاعدة الى قوتها القصوى، وشعرت وكأن الزورق محمول على وسادة هوائية، ثم انزلق في ممر أملس الى الماء محاطا بسحابة كثيفة من الرذاذ، ودهشت لهذه الكمية الهائلة من أصوات الطيور التي ارتفعت صارخة في الفضاء تدور حولهم غاضبة وهم يشقون عباب النهر الأسود.. وانتشرت موجة من الفرح بين الرجال عندما أعطى القبطان جوزيف روجرز علامة النصر من غرفة القيادة، واندفعت عبارات التهاني عندما استقرت السفينة نهائيا بثبات في طريقها الى منطقة كازيكوير في

أعالي أورينوكو.

وكان الزورق مزدحما بالمعدات وكل عضو في البعثة قد اختار بصعوبة مكانا صغيرا ليقوم فيه بالعمل في أبحاثه وها هي تينا الآن تمضي في طريقها المحتوم، وقد وجدت أن العمل هو وسيلتها الوحيدة للنجاة، وجمعت نماذجها الأولى وقررت أن تدفن نفسها في دراستها لتنسى مخاوفها من المخاطر التي تكمن لها في المناطق الواسعة من الأدغال، التي ترحل اليها الآن، وحاولت أن تتغلب على العقد الكامنة فيها، لكن القلق كان يغمرها وهي تشاهد مدينة مانوس تختفي خلف الأفق بعيدا عن أنظارها، وكان عزاؤها أنها أصبحت الآن فعلا وسط المعركة، وكان القلق يسيطر عليها منذ تركت رامون فيغاس في الصباح الباكر من هذا اليوم. وعندما وصلت الى غرفتها ذكرتها الأوراق المتناثرة بالرسالة التي كتبتها الى عمتها، وتحركت يدها آليا الى جيبها حيث وضعتها قبل الاجتماع، لكنها خرجت خالية! كان الخاطر الأول الذي داهمها أن يكون رامون فيغاس وجد الرسالة على الأرض في المقعد الذي كانت تجلس فيه. فاندفعت تنزل السلم، لكن الغرفة كانت خالية تماما. وبعد بحث فاشل، أيقنت أن شخصا ما وجدها ولكن من يكون هذا الشخص؟.

احتمال واحد أصبح مؤكدا الآن: أن رامون فيغاس لا يمكن أن يكون هو الشخص الذي عثر عليها، فقد كان من المنطقي في هذه الحالة أن يستدعيها ويواجهها فورا بسؤال: لماذا تبعث برسالة من رسائل الفندق الى نفسها، وقد وضعت عليه عنوانا هناك في لندن؟

وسمعت صوت انيزغارسيا أعلى من صوت الآلات: آنسة دونيللي هل أنت صماء؟ وجهت اليك السؤال نفسه ثلاث

مرات حتى الآن!"
"آسفة، ماذا تريدين أن تعرفي؟"
"انني أعد ملفا لكل عضو في البعثة، وأريد بعض المعلومات عنك. فأنت تعرفين طبعا أنني طبيبة."

وأومأت تينا برأسها. دونا أنيز لا تبدو أبدا كطبيبة، كانت ترتدي بلوزة من النايلون بيضاء اللون، مع تنورة ناعمة متطايرة من اللون الأخضر الباهت، وحزام عريض من الجلد مشغول بالمعدن، وقد أمسك خصرها بشدة حتى بدت شديدة النحافة، مما جعل منظرها يبدو أقرب الى الغانية منه الى الطبيبة، لكنها شعرت بالرضى عندما فكرت في ما ستعانيه دونا انيز عندما تشتد حرارة الجو بعد ساعتين على الأكثر، وتصبح البلوزة النايلون مع أنها تسير مع أحدث خطوط الموضة، وكأنها طبقة أخرى من الجلد، كما أن الحزام الجلدي سوف يلفت الأنظار اليها عندما يصبح احتكاكه بخصرها غير محتمل. قالت انيز: "ماذا تحملين من الادوية؟"

أجابت وهي تعد على أصابعها: أدوات العلاج الكاملة ضد سموم الثعابين، بما فيها مشرط دقيق لا يزيد طوله عن بوصة واحدة ودواء ضد الحشرات، ومضادا حيويا للملاريا وأقراص فيتامين وأقراصا للملح.

وتحولت نظرات الطبيبة، الى التعجب وسألتها: كم عمرك؟"

فرمقتها بعينيها كأنها تقدر عمرها بنفسها، ولاحظت اللون القرمزي الذي يخضب جلدها الجميل وهي تفكر بوحشية، وأطلقت تينا أكذوبتها، ٢٦ سنة.

وبدت انيز وكأنها غير مصدقة، ومع أنها لم تعترض الا أن تينا شعرت بأنها لا تصدقها وغاض لونها عندما

ألقت عليها الطبيبة نظرة خبيثة وقالت:
"يا للتشابه العجيب، اننا في سن واحدة."

ودون انتظار لأي تعليق، واصلت اسئلتها:
"ماذا أكتب أمام الوظيفة التي تشغلينها: صائدة النبات؟"

وتجمدت تينا أمام لهجة الاحتقار التي تحدثت بها انيز فكلمة صائد النبات كثيرا ما كانت تطلق على علماء النبات للانتقاص من قدرهم أكثر من الاعجاب بهم ولم تهتم تينا بمعرفة ما اذا كانت أنيز تبغي السخرية أم الاعجاب، فقد انبرت للدفاع عن جميع العلماء المهانين في مهنتها، بحرارة قاسية قالت:

"قدم علماء النبات الكثير لعالم الطب يا آنسة ولولا العلماء السابقين في مهنتنا لكنتم أنتم أيها الأطباء مازلتم تعانون من الجهود الفاشلة في سبيل شفاء الملاريا." واضافت بنبرة غاضبة:

"من الذي اكتشف أن أوراق السبانخ والفلفل الأخضر تستخدم في تحضير فيتامين "ك" التي تساعد على التجلط وتمنع النزيف هل كان طبيبا؟ كلا لقد كان صائد نبات ثم من الذي اكتشف النبات ورعاه وبذل الجهد ليل نهار وأجرى التجارب ليكتشف الخلة التي تشفي الجذام؟ هل كان طبيبا كلا، مرة أخرى، بل لقد كان صائد نبات وهناك المطاط والحبال والشمع كل هذه الأشياء أخذت الكثير من عمر صياد النبات، وهو يعيش وحيدا ولأسابيع طويلة بين الأدغال وعلى شواطىء الأنهار والممرات الصخرية العتيقة، وبرودة ضباب الصباح، والليالي الباردة السوداء، والحيوانات المتوحشة، والزواحف السامة."

لكنها توقفت عندما لاحظت هذه الدائرة من الوجوه

المشدوهة التي أحاطت بهما. كان هجومها الذي سببته كلمات انيز المهينة، قد جذب المتفرجين المذهولين، ليحاولوا التحكيم بين الاثنتين، متعاطفين تماما مع أنيز غارسيا التي كانت قد رسمت على وجهها بقدرة رائعة تعبيرا هو خليط من الخجل والضعف وشعرت تينا بالغباء، فتحولت عنها، لكنها توقفت عندما سمعت صوت رامون فيغاس يفرق الرجال.

ووسط جمع من المتعاطفين سارت أنيز الى الجانب الآخر من السفينة، تاركين تينا وحدها مع فيغاس وقد قابلت نظراته القاسية بنظرة حادة لكنه لم يتكلم حتى جلس الى جوارها. وعندئذ قال، محاولا السيطرة على كلماته بارادة حديدية:

"آنسة دونيللي، لماذا تجدين من الضروري أن تضايقي كل شخص يحاول الاتصال بك؟"

"هذا غير صحيح."

"اسمحي لي انني أستطيع أن أحكم من الطريقة التي يتجنبك بها الزملاء، انك تعاملينهم بكبرياء. واذا حكمنا على المثال الذي شاهدته الآن فان الغطرسة فيه تزيد عن الحد. انني أحمل كل احترام لكل أعضاء مهنتك، وأيضا للشهرة العظيمة التي بنيتيها أنت لنفسك، ولكني أريدك أن تعرفي..."

وصمت، وانحنى الى الأمام حتى أصبحت عيناه الزرقاوان الذكيتان في مواجهة عينيها:

"ان نجاح هذه البعثات يعتمد أساسا على مقدرة أعضائها على التكيف مع بعضهم البعض، تماما كما تعتمد على حسن تخطيط الرحلة ومقدرة القيادة. وقد استطعت أن أهتم بكل تفاصيل النقطتين الأخيرتين، لكن الآن يبدو أنني يجب أن أتأكد من انسجام الفريق كله خلال الرحلة، لذلك أرجوك يا آنسة أن تراعي في المستقبل اختيار عباراتك، وأن

تحاولي - حتى لو وجدت صعوبة في ذلك - أن تعاملي زملاءك بطريقة أكثر رقة مما تفعلين."

وانحنى نحوها متوعدا، منتظرا اجابتها، والغضب الجامح يلمع في عينيه الزرقاوين.

أفاقت تينا من الجو الساحر البدائي الذي يفوح منه، وكافحت لتخلص صوتها من عقدة الصمت التي أصابتها. شعرت كأن جوانب السفينة تتقارب لتضيق حولها. في الخارج لم تستطع أن ترى غير جدار من الأدغال الموحشة، ومساقط مياه مندفعة، لكنها كانت قد شعرت بأنها تستطيع أن تجد في الداخل على الأقل بعض الأمن والحماية. أما الآن، وشبح رامون فيغاس يخيم عليها فها هو تهديد محنة الادغال الوشيكة بدأ بالفعل. وانكمشت بجسمها النحيف في ركن مقعدها، وقابلت نظراته بعينين واسعتين امتلأتا بالرعب وأمام منظر تراجعها، أطلق صيحة تعجب مغمغمة، ووضع يده السمراء ذات الأصابع القوية فوق يدها المرتعدة، وسألها برقة:

"ماذا حدث يا آنسة ما الذي يضايقك؟"

واحمر وجهها، وسحبت يدها من تحت يده، وهي تستعيد نظراتها الحادة التي دربت نفسها عليها وقالت:

"انني أكره العنف ياسيد أرجوك، لا تلمسني!"

وتراجع في الحال، ووقف ينظر اليها غاضبا، ثم غمغم بكلمات أسبانية، وهمس لها في شبه فحيح:

"انني أكاد لا أصدق.. كيف يمكن أن يخفي هذا المظهر الفائق كل هذا السم البارد انك تدهشينني يا آنسة."

وتصورت أنه سيتركها، ولكن بعد دقيقة من الصمت، كانت خيبة أملها شديدة عندما اكتشفت أنه قرر أن يعيد

المحاولة. وبصوت هادىء، حاول أن يستميلها، قائلا:

"يجب أن أعترف بأننا مجموعة من الناس مختلفة الامزجة والمشاعر، وأن الانسجام بين الجميع ليس بسيطا.. لكن الامر يكون سهلا لو أننا كنا غير مستعدين للاحتكاك ببعضنا البعض، ولو حاولنا الاتصال في ما بيننا بنية صافية للوصول الى مجموعة منسجمة راقية.. ألا توافقينني على ذلك؟"

وعندما رفضت الجواب، بدا صوته أكثر قسوة وهو يستطرد:

"هناك اتجاه قوى للصداقة ينمو بين أفراد الفريق، وكل منا مستعد للمشاركة في الاعمال التي سنقوم بها في المعسكر الذي سنقيمه عندما نتوقف في المساء. فهل تعدينني بأنك ستتخلين عن تسلطك لتسمحي لروح الصداقة بأن تنتشر؟ انه شيء علينا جميعا أن نفعله، وسوف ننجح فيه، اذا لم يتعمد كل منا أن يصطدم بالآخر في محاولة لتحطيم معنوياته."

كان يتحدث اليها طالبا منها الصداقة وهذا هو الشيء الذي لا تجرؤ على القيام به. وباندفاع ظاهر قالت:

"اتيت ياسيدي الى هنا للعمل، وليس للقيام بلعبة العائلات السعيدة، انني سأقوم بالأعمال التي تطلب مني طبعا، ولكن لا تطلب مني أن أكون اجتماعية لأن لا وقت لدي لذلك."

"حسنا. الليلة عندما نقيم المعسكر، سيكون عليك القيام بأعمال المطبخ، ستعدين العشاء وتقدمينه، ثم تنظفين الأواني بعد الانتهاء من الطعام، ويجب أن تكوني قد انتهيت من أعمالك قبل الساعة العاشرة لأنك يجب أن تستيقظي في الخامسة صباحا لتعدي طعام الفطور هل هذا واضح؟"

هزت رأسها بالموافقة دون أن تنطق بحرف، فاستدار عنها في حدة، وسار مبتعدا، عائدا الى عمله وفجأة لم تستطع أن ترى شيئا. اذ غمرت الدموع عينيها، فحولت رأسها

الى النافذة، وأغمضتهما بسرعة لتتخلص من دموعها، لكن الدموع جرت على خديها سريعة وكثيفة وحارة. وكانت حقيبتها على الأرض، فانحنت فوقها لتخرج منديلها، عندما سمعت صوت برانستون الكريه. لقد وقعت في الشرك. لم يكن أمامها وسيلة الا أن تمسح بيدها الدموع المتدفقة قبل أن ترد عليه، وألقت رأسها بعيدا، متظاهرة بمشاهدة المناظر امامها، ولكن ها هي الآن مضطرة لمواجهته بعد أن ألقى بجسمه على المقعد المجاور لها، وسألها بفضوله المعتاد:

"هل استطاع الرئيس أن يضايقك؟"

"كلا، لماذا؟"

"لأنك تجرأت واهنت سيدته المفضلة. ألا تعرفين أن أنيز أرملة، وأنها هي والسيد صديقان حميمان وهناك اشاعة أنهما سيتزوجان بعد انتهاء هذه الرحلة مباشرة؟"

"أنا لا أهتم بحياة الناس الشخصية، فاذا كان هذا هو كل ما تريد أن تخبرني به يا سيدة برانستون. فاسمح لي بالانصراف، لان عندي بعض الاعمال العاجلة."

وأخرجت مجموعة من الأوراق، ارتفع حفيفها وهي تقلب فيها لكنه لم يظهر أي استعداد للانصراف، بل على العكس، فقد أراح نفسه أكثر في مقعده واستدار في اتجاهها، وبادلها نظراتها المتجاهلة بنظرات حافلة بالاهتمام:

"هل تعرفين يا تينا انك تثيرين فضولي حقا."

وبهدوء واضح أخذ ينظر اليها، منتظرا رد فعلها، الذي تمثل في جمعها لاوراقها، وتحركها للانصراف، لكنه مد ساقيه الطويلتين مغلقا الطريق أمامها.

"أرجوك، أريد المرور والانصراف."

تلاشت ابتسامته، واتسعت عيناه الضيقتان، وامتلأتا

بنظرة مهددة:

"اجلسي يا حبيبتي، ان هناك مواضيع كثيرة يجب ان نبحثها."

"كلا.. واعلم يا برانستون أن وجودك يضايقني، وانني لن أتحمله دقيقة أخرى، فاذا لم تتركني أسير في طريقي، فانني سأصرخ طالبة النجدة."

احمر وجهه، وانثنى فمه. وفجأة، مد يده الى جيبه الداخلي، وسحب منه ظرفا، حركه أمام عينيها وكانت ضربة. وببطء جلست مكانها ثانية، وارتفعت دقات قلبها من الانزعاج: ليس هناك خطأ، فها هو خطها على الظرف الذي يمسكه بيده. ثيوبرانستون هو الذي عثر على رسالتها الى عمتها.

"من أين حصلت عليه؟"

"سقط منك يا حبيبتي هذا الصباح بعد الاجتماع. وقد التقطته لأعيده اليك، ولكن كنت فضوليا أكثر من اللازم فاختلست نظرة الى الاسم، واستغربت! أليس ذلك غريبا يا عزيزتي؟"

قالت محاورة: "ما هو الغريب في أن يكون لعمتي الاسم نفسه الذي أحمله ياسيد برانستون؟"

"لا شيء يا حبيبتي، ولكن ذلك ليس اللغز كله. أليس كذلك؟"

"لغز.. أي لغز؟"

"اسمعي يا عزيزتي تينا، رامون فيغاس ليس الوحيد الذي سمع عن كريستينا دونيللي، عالمة النبات المشهورة. لقد قمت أيضا ببعض التحريات، وعلمت أن الآنسة دونيللي الحقيقية يقترب عمرها من الأربعين وليس العشرين. هل تعتقدين أنني لم ألاحظ محاولتك أن تظهري أكبر سنا من الحقيقة، قبل أن تقابلي فيغاس؟"

وواصل حديثه في مرح:

"ولكن، حتى تصفيف شعرك بهذه الطريقة، لا يمكن أن يخدع رجلا، ويجعله يعتقد انك قد خلفت سن المراهقة وراءك منذ زمن بعيد. ولذلك. هيا يا عزيزتي. أخبريني القصة كلها وأعدك بأن سرك سيكون في أمان."

تراجعت في مقعدها. لم تكن تستطيع أن تشعر بالثقة فيه، وكان كلامه الناعم الذي يحاول أن يخلطه بالاعزاز يثير اشمئزازها، ولكن ما الذي يمكن أن تفعله الآن، سوى أن تثق فيه. لم يكن لديها شك في أنه سيستفيد من سرها لتحقيق مصالح خاصة به، ولكن لم يكن لديها خيار، فهم ما زالوا على مقربة من مانوس ولا تستطيع المجازفة بأن تتركه يفضي بسرها الى رامون فيغاس: كانت مهزومة تماما، ومن نظرات الانتصار في عينيه، عرفت أنه يعلم ذلك، فتنهدت في يأس، وقالت:

"أخبرك كل شيء اذا وعدتني بكتمان السر."

"هيا ياحبيبتي كلي آذان صاغية..."

وارتعش صوت تينا وهي تبدأ قصتها:

"اشتركت في هذه الرحلة متقمصة شخصية أخرى، لأن عمتي، وهي كريستينا دونيللي الحقيقية كسرت يدها في اللحظة الأخيرة، وكان علي أن أحل محلها حتى لا نغضب سير هارفي هاتيمان، عالم النبات الذي كان يعقد آمالا عريضة على النتائج التي ستعود بها من هذه الرحلة لا سيما وانني أنا بدوري عالمة نبات متمرنة، وقد عملت قريبة من عمتي، حتى انني أعرف تماما ما الذي تبحث عنه، ولا يعرف هذا السر الا عمتي وأنا فقط. ولذلك فانني مضطرة للاحتفاظ بشخصيتي حتى نهاية الرحلة، لأن السيد فيغاس سيعيدني اذا

عرف الحقيقة. ولذلك أرجوك ياسيد برانستون أن تحتفظ بما صارحتك به لنفسك. ان وجودي هنا ضروري، وتنكري لن يضير أي شخص، أرجوك أن تعدني بألا يعيدوني من حيث جئت.»

ألقى برأسه الى الخلف، وانطلق ضاحكا وضرب على ركبتيه وقال:

«هل هذا هو كل شيء؟ تمخض الجبل فولد فأرا، كنت أعتقد أنك على الاقل هاربة من جريمة ما... ساحتفظ بسرك فلا تقلقي وساكون حارسك طوال الرحلة وهذا يسعدني جدا.»

وليؤكد سعادته، جذب ذراعه حولها محتضنا، ومن الركن الضيق الذي وجدت تينا نفسها فيه، رأت فيغاس يستدير غاضبا وانقذت نفسها من ذراعي ثيو وقالت:

«سيد برانستون، اذا كررت هذا التصرف مرة أخرى، فساخبر الجميع القصة كلها بنفسي!»

ومن الوميض الذي لمع في عينيها الخضراوين، أيقن أنها تعني كل كلمة تقولها، فقرر أن يعيد الهدوء الى الموقف، سحب ذراعه من حول كتفها، وقال بلهجة البريء المظلوم:

«حسنا ياعزيزتي سأفعل ما تريدين، لم يحدث أي ضرر.»

استلقت في مقعدها، وأغمضت عينيها، تاركة اليأس الذي كانت تشعر به يغمرها: هل حقا لم يحدث أي ضرر؟

ولسبب ما لاحقت في خيالها نظرة رامون فيغاس الغاضبة، وكأنها تكذب هذه الكلمات!

٤ - المواجهة!

كان الغروب قد بدأ يلقى ظلاله الأولى، عندما وصلوا الى ثيوبوروكوارا، أول استراحة لهم في رحلتهم، وكان الزورق المحلق قد سار بهم بسرعة هائلة بفضل القيادة الماهرة للكابتن جوزيف روجرز، الذي نجح في عبور المنحدرات الهائلة، والمناطق التي امتلأت بالحشائش التي تغلق أمامهم أبواب النهر. حتى وصل بهم الى استراحتهم الأولى.

وبمجرد أن ارتفع صوت أزيز المحرك وهو يتوقف، تدافع الجميع للخروج من الزورق في لهفة تخلصاً من الجو الخانق الحار الذي عانوا منه طوال الساعات الأخيرة من الرحلة.

وقفت تينا على سياج الزورق، وجاهدت لاستنشاق بعض النسمات، ونظرت حولها. كان المكان متسعا، اختاره رامون فيغاس بنفسه في احدى رحلاته السابقة، وقد أحاطت به الأدغال من جهات ثلاث. وعادت بها رائحة النبات، ونسيم الأدغال، والمناظر المألوفة، الى الماضي، ووقفت مترددة، عازفة عن ترك الزورق الذي شعرت فيه بالأمان، حتى استدعى الامر صرخة آمرة من رامون فيغاس لتخرجها من خوفها.

"تحركي بسرعة يا آنسة، سنكون في انتظار الطعام

بعد نصف ساعة."

وقفزت من مكانها، وقد احمر وجهها، وجميع من حولها يبدو عليهم الرضى بما انيط بهم من أعمال، والمكان حولها يموج بالعمل. أما هي فلم تكن تعرف كيف تعد الطعام، أو حتى نوعية هذا الطعام الذي يجب أن تصنعه، ولم تكن تتصور أبدا أنها ستسعد بسماع صوت برانستون قريبا منها، مثلما حدث الآن عندما سمعت صوته، فقد قفزت لمواجهته بارتياح واضح.

قال لها عارضا خدماته:

"سأشعل النيران، بينما تجمعين أنت الأطباق وأدوات الطهي ستجدينها جميعا في هذه الكومة هناك!"

"هل تعرفين كيف تصنعين البوردج والقهوة؟"

"بوردج وقهوة؟ هل هذا هو كل شيء؟"

"هذا المساء فقط، ولكن لا تنتظري هذه الرفاهية كل يوم يادميتي. سوف نعيش على الارض، بضعة أسابيع قادمة.. وهذا معناه أننا سنأكل بعض الحيوانات، وذيل التمساح المسلوق، أو الأسماك الوحشية."

وأطلق ضحكة ساخرة واستطرد:

"كل ما أستطيع أن أعدك به، انني لن أتركك تأكلين طعام الوطنيين هنا المصنوع من الديدان والثعابين! خلال أي يوم من أيام الرحلة."

وشعرت تينا بالارتياح بعد أن استطاعت خلال نصف ساعة من العمل السريع المكثف، أن تنتهي من اعداد الطعام، وألقت نظرة أخيرة على القدر الموضوع فوق نيران المعسكر، ثم راجعت عدد الاطباق لتتأكد من وجود العدد الكافي لكل هؤلاء الرجال الذي انتهوا الان من اعداد المعسكر، وبدا

المكان ساحرا على أضواء النيران، والمصابيح التي أحضرها الرجال لاستعمالها في مناطق عملهم، حيث كانوا يعملون، تنفيذا لأوامر رامون فيغاس بتنظيف الأرض من أي حشرات تتناثر حولهم، واقامة الاسرة المعلقة بين الشجر ليناموا عليها.

وحاولت تينا أن تبعد عن ذهنها الساعات الطويلة التي ستقضيها فوق سريرها المعلق منتظرة أخطاراً داهمة لا تعرف عنها شيئا.. وركزت تفكيرها في العمل الذي تقوم به، قائلة لنفسها انها يجب أن تعيش الحياة لحظة بلحظة.

وضاعت كل مخاوفها، عندما أحاطت بها قبيلة من الرجال الجائعين، طالبين الطعام، وبسرعة، ملأت الأطباق بالبوردج والأكواب بالقهوة ذات الرائحة الشهية، وفي لحظات كانت نيران المعسكر قد أحيطت بدائرة من الرجال يتحدثون في كل شيء، مسرورين بهذه الوجبة البسيطة الشهية.

وكانت أنيزغارسيا تجلس قرب رامون فيغاس. أما تينا فقد أخذت طبقها واقتربت من المجموعة لتجد برانستون حجز لها مكانا بجواره، فاتجهت نحوه، وقد اعجبها انه اختار مكانا بعيدا عن الباقين، برغم أنها كانت راغبة في صحبته، ويبدو أن انيز أيضا شعرت بالارتياح لبعدهم عنها، فعندما ألقت تينا عليها نظرة سريعة، لمحت بريق الانتصار، والرضى الخبيث، واضحا في ابتسامتها. وأشاحت تينا بوجهها بسرعة، فقد كان ملطخا من البخار والمجهود الذي بذلته في اعداد الطعام، بينما أنيز غارسيا تلمع بالراحة والنظافة، وهي تأكل بشهية من الطعام الذي بذلت الجهد والعرق في اعداده، وشعرت تينا بالظلم، فمهما كان العمل الذي كلفت به انيز، فانه بلا شك لا يستدعي منها القيام بأي مجهود، فها هي جميلة ورائعة كالعادة.

ارتفع صوت جوك سوندرز الاسكتلندي مخاطبا القائد:

"هل انت راض عن الرحلة التي قطعناها ياسيد؟ هل سنبقى هنا لنبدأ في دراسة مشاريعنا أم سنتحرك غدا؟"

وصمت الجميع انتظارا لرد رامون فيغاس الذي قطع محادثته مع جوزيف روجرز ليرد على سوندرز:

"كان هذا ما أناقشه مع جوزيف روجرز وقررنا ألا نبقى هنا مدة أطول من الضروري، خاصة وأننا جميعا نشعر براحة أكثر عندما نعبر دوامات سانغابريل الرهيبة ونتركها وراءنا."

وردد فيلكس كريللي الكلمة متسائلا:

"هل هي رهيبة بالفعل؟"

"نعم، انها تبدأ بعد أميال قليلة من هنا. وخطورتها في أنها تمتد مسافة طويلة، فهي تسعة عشر دوامة سريعة رهيبة. وعندما يضيق نهر النيغرو، ويمتلىء بالصخور الضخمة والحادة تتناثر هذه الدوامات بينها، وهي ليست أخطر ما سنقابله في طريقنا، فهناك ما هو أخطر منها ينتظرنا في نهر أورينوكو، لكنها تمثل العقبة الخطيرة الأولى في رحلتنا، وهي تتحدى شجاعة كل فرد هنا."

ورفع يده طالبا الصمت من الجميع

وبطريقة تلقائية، شعرت تينا بالتوتر. فخلال الصمت سمعت صوتا كأنه هدير الرعد يرتفع فوق الاشجار العملاقة، وعرفت الصوت، انه اندفاع المياه الرهيب وتوقف قلبها عن الخفقان. ترى، ما هي المخاطر التي يمثلها هذا الصوت؟

قالت انيز:

"لكننا سنكون في أمان طبعا ونحن في الزورق يارامون؟"

وتعلقت عيناها بوجهه وهي تنتظر الجواب، وبقي فمه صارما، لكنه وضع يده على يدها وضغط عليها مطمئنا ثم قال:

"أعتقد أن جوزيف يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال أكثر مني، مصيرنا مرهون بمهارته وحكمته!"

وتحرك جوزيف قلقا، وعيناه تلمعان وهما تحومان حول دائرة الوجوه القلقة:

"قد ينقلب بنا الزورق وسط الدوامات، وسوف تكون الصخور وبقايا الجزر الخطرة خطرا رهيبا اذا سقطت فوقنا. وهذا خطر يقلقني ولكن أنا متأكد اننا سننجح."

وأشاع شعوره بالثقة ارتياحا بين الجميع، واستراح جسد تينا المتوتر، وبطريقة غريبة استطاع روجرز بصوته الواثق الهادىء المتفائل أن يجعل كلا منهم يشعر بأن هذه الكوارث التي تحدثوا عنها، لن تحدث ابدا.

وبدأت الأحاديث تتقطع أثناء تناول الطعام، فقد كان الرجال مرهقين وبدأوا ينسحبون واحدا بعد الآخر الى أسرتهم لينالوا أكبر قسط من الراحة قبل اليوم التالى الذي ينتظرون فيه الكثير من الاحداث، حتى لم يبق غير رامون ومعه انيز، وبرنستون مع تينا يواجهون بعضهم البعض عبر النيران.

وتجاهل برانستون أعراض التعب والارهاق التي بدت واضحة على وجهها، وحاجتها الشديدة الى النوم، حتى أن رأسها كاد يسقط على صدرها أكثر من مرة، وأصر على أن يواصل احاديثه وبينما كانت هي تفكر في أكوام الأطباق والاواني التي كان عليها أن تنظفها قبل النوم، كان برانستون ما زال مصرا على أن يستمر في استعراض مغامراته وتجاربه في رحلاته المختلفة. وأصبح متعذرا على تينا أن تفتح عينيها، ويبدو أن السيد رامون كان مشغولا عن رفيقته بملاحظة برانستون وتينا، لدرجة أن صوته عندما تسلل عبر المسافة التي تفصلهما ارتعدت، وكأن سهما جيد التصويب انطلق اليها.

"يا آنسة هل يجب أن أذكرك بأن عليك عملا يجب أن تؤديه؟"

وقفزت بطريقة لا ارادية عندما سمعت صوته الآمر، لكن الارهاق منعها من أن تجيب فورا، ومرت لحظات قبل أن تجمع أفكارها لترد. ولكن وبطريقة مستاءة، تولى ثيو الرد:

"سأساعدها، فأنا لن أسمح لتينا بأن تقوم بكل هذا العمل وحدها!"

وبوجه متجهم أشار الى أكوام الأطباق والأوانى المتناثرة. وبعينين ضيقتين مصوبتين بكل اصرار الى برانستون، قال رامون:

"يبدو أنك لم تسمع ما قلت يا برانستون، لقد أصدرت أمرا مشددا، بأن على كل فرد منا أن يقوم بواجباته بنفسه، قلت انني لن أحمل معي سياحاً هل تذكر؟ انني أعني ما أقول، ان لدى الآنسة دونيللي وقتا كافيا للقيام بأعمالها، ولكن بما أنها تفضل قضاء الوقت في الثرثرة معك، فعليها أن تتحمل ذلك."

واسود وجه برانستون غضبا، وارتعدت تينا وهي تراه وقد أحكم قبضته وكأنه يستعد للهجوم على الرجل! وهمست بسرعة:

"أرجوك ياثيو... انا لا أحتاج الى مساعدتك، الحقيقة أنني مصرة على القيام بواجباتي بنفسي!"

ورفعت رأسها ناظرة الى انيز التي لم تكن تخفي سرورها لما تشاهده وقالت:

"يكفي وجود شخص واحد مدلل في الرحلة!"

وذهلت انيز لهذا النقد، وقبل أن ترد بادر فيغاس الى التدخل وقال:

"يبدو أن دونيللي متعبة، وبما أنه من السهل اثارة

غضبها حتى في الظروف العادية، فمن الأفضل يا انيز - أنت والسيد برانستون - أن تأويا الى فراشكما الآن.

ونقل بصره بينها وبين برانستون. ومع أن كلامه كان يبدو وكأنه طلب، الا أن لهجته كانت كالامر الصارم وبادرت انيز باطاعة أمره فقالت:

"حسنا، ايها العزيز رامون.."

وأحنت رأسها نحوه، وهمست بجملة ناعمة باللغة الاسبانية:

"طابت ليلتك كارامورو."

ولاح شبح ابتسامة رقيقة على فم رامون المتوتر، لكنه عندما استدار ليواجه برانستون، كان تعبير وجهه قاسيا كالحجر.

"وأنت يابرانستون؟

وتكهرب الجو وواحدهما يواجه الآخر في صمت وانهمر العرق غزيرا يغرق وجه تينا وهي ترى عيونهما تلتقي في تحد، ولم تعد تحتمل الانفعال أكثر من ذلك فهمست:

"أرجوك ياثيو.. افعل ما طلبه منك!"

وغضب ثيو، وألقى نظرة تفيض بالكراهية على رامون، ثم استدار على عقبيه وتركهما وحدهما.

* * *

كانت يدا تينا ترتعشان وهي تجمع الأطباق. وكان فيفاس يقف في الظلام، خارج مجال الضوء الذي ينبعث من

المصابيح الصغيرة، وهو يراقبها وكان الموت أفضل عندها، من أن يرى تعاستها وضعفها بعد ما حدث.

ولم تصدق نفسها وهي تستمع الى صوته الذي يفيض بالرقة، فليس هذا أبدا هو صوت هذا الرجل القاسي. قال:

"يا آنسة يبدو عليك الارهاق. دعيني أساعدك."

ومنعتها المفاجأة من الكلام، وحتى عندما امتدت يده السمراء القوية لتأخذ الطبق من يديها المرتعشتين، بقيت لا تصدق نفسها، وظلت وهي مبعدة رأسها، بشعرها الذهبي المرفوع الى أعلى، تعمل وهو الى جانبها، حتى انتهى تنظيف آخر طبق دون أن تنطق بحرف واحد، أو تلقي نظرة اليه، ثم استدارت لتذهب. وامتدت يده لتقبض على ذراعها بقوة والتقت عيناها المتساءلتان بنظراته الرقيقة وسألها:

"آنسة دونيللي، هل تغفرين لي؟"

"ما الذي أغفره لك يا سيد؟"

"هذا العقاب طبعا! لقد استثارتني طريقتك الانكليزية المتعالية، فوضعت على كتفيك الرقيقتين هذا الحمل الثقيل!"

وتوقفت أنفاسها بتأثير هذا السحر غير المتوقع الذي يصدر منه وعندما ابتسم، شعرت بشيء ما في داخلها يدفع قلبها بسرعة الى الاحساس بجاذبيته، وشعرت فجأة بالاضطراب، وبأنها مفعمة باحاسيس حارة تتدفق من تأثير لمسة أصابعه على ذراعها، ولم يكن هو يشعر أبدا بهذا التأثير الخطير الذي يحدثه في نفسها، كانت نظراته الآن كنظرات طفل صغير بريء يطلب الغفران. فقد فجأة سلطته، أصبحت لمساته رقيقة وحانية، كما تكون لمسات القوي عندما يحنو على الضعيف.

لكن تينا كانت تشعر أن قوته هائلة، يجب أن تهرب

منها كما تهرب من كل خطر مجهول، فتخلصت من قبضته، وأخذت تخطو الى الوراء بسرعة، حتى انتهى الطريق بشجرة ضخمة، فنظرت حولها يائسة تبحث عن طريق للهرب، بينما تحرك هو اليها وسحابة من الدهشة الحقيقية تغطي وجهه، وقال لها بهدوء:

"هذه هي المرة الثانية التي تهربين فيها بعيدا عني يا آنسة. ما الذي يضايقك مني؟"

كانا قد تحركا بعيدا عن مجال الضوء، ولذلك انحنى عليها ليتأمل جيدا هذا الحزن الثقيل الذي يلقي ظلاله على وجهها الأبيض وعندما اقترب منها ضغطت على جذع الشجرة الضخم، وكأنها تنحت في كتلتها الصلبة طريقا للهرب، ولكن. ليس هناك مهرب من نظراته الفاحصة. وحتى هذا الظلام الأسطوري الكثيف، في الليل الاستوائي، لم يستطع أن يخفي الخوف والرعب من عينيها الواسعتين.

"هل أنت خائفة مني؟"

وصدمتها لهجته، وسارعت الى الانكار:

"لا طبعا لا."

اقترب منها ووضع يديه القويتين على كتفيها فشعرت بالنار تندلع في جسمها من لمسته، خلال القميص الخفيف الذي ترتديه، بينما الانفعال يدفعها الى الحذر.

"اذن لماذا أشعر كلما نظرت الي كما لو ان أحد الحيوانات الأسطورية ظهر لطفل في أحلامه. لماذا تعكس عيناك كل هذا الخوف؟ مازلت الى الآن تريدين انكار هذه الحقيقة."

نظرت اليه بجزع وفجأة سألها وقد اكتأب وجهه:

"كم تبلغين من العمر؟"

"هذا ليس من شأنك يا سيد."

"أنت مخطئة، فهذا من صميم عملي، يجب أن أعرف اذا كان من يرحل معي خبيرا في الرحلات أم لا. وأنت يا آنسة دونيللي، لا يبدو أنك في سن تسمح لك بالذهاب حتى الآن الى أكثر من صفوف المدرسة."

كان يتحدث بقوة، لكن نظراته عكست عدم تأكده مما يقول. وألقت تينا برأسها الى الخلف، ونظرت اليه بترفع بارد، ثم قالت:

"قمت برحلات عديدة ياسيد، الى معظم أقطار العالم، وخلال كل أنواع المخاطر والاحوال المختلفة، وفوق العديد من المناطق الصعبة."

وشعرت بالثقة، فقد كان كلامها صادقا وتابعت كلامها تريد من اقناعه:

"أعتقد انه ينبغي أن أحمل كلامك عن سني على محمل المجاملة. ولكن، أرجوك.."

احتد صوتها، في محاولة للدفاع عن نفسها، والهجوم على ثقته الهائلة في نفسه:

"لا تحاول أن تقوم بتجاربك لتؤثر على بسحرك اللاتيني، سوف تجدني محصنة ضده تماما، وأقترح عليك..."

وهنا تحولت لهجتها الى البرود الكامل لتنهي كلامها:

"اذا كنت تشعر بانك في حاجة دائمة الى وجود العنصر النسائي معك. فيجب أن تركز جهودك على الآنسة انيز وحدها.."

اصفر وجهه، وان لم يظهر شحوبه في الظلام، ولكن ضغط اصابعه على كتفيها عكس الغضب الذي يموج في نفسه، بينما تحملت هي الالم وكأنه عقاب على وقاحتها وأغمضت عينيها، وهي تمنع نفسها بصعوبة من اطلاق صرخة تحطم

بها السكون الذي يحيط بهما..

كانت تعرف انه اذا تكلم، فسوف تكون كلماته كلها شتائم ولعنات.. ولكن كان أسهل أن تحتمل احتقاره، من أن تدعه يكتشف مبلغ الاضطراب الذي يثيره في كيانها. فان رجلا قبله لم يكن له هذا القدر من الجاذبية التي تحسه نحو رامون فيغاس. سبق لها الخروج مع بعض الرجال، ولكن لم يكن لأي منهم أي تأثير عليها اذا قورن بهذه المشاعر التي تنتابها بمجرد أن يلمسها.

وارتعدت. وعندما تكلم، تداعى قلبها حزنا وألما لهذه الهزيمة البادية في كلماته القاسية:

"يا آنسة، لقد أقنعتني. لم يعد مظهر شبابك الخادع يقلقني، ان لسانك الحاد كفيل بتهيئة الحماية الكاملة لك، ولن يعاني من أي مشكلة مع أحد من الرجال، واذا كنت قد سافرت كثيرا فاعتقد أنه لم يعد عندي شك في أنك ستحسنين التصرف، وأعتقد انك لن تجدي في كلامي لك أي مديح او تملق، ولتكوني على ثقة من أني أنفذ ملاحظاتك بكل دقة، وأعدك بأنك لن تشعري بعد اليوم بأنني شخص جذاب."

ثم تركها واختفى في الظلام. وعندما استلقت في سريرها المعلق، وقد التفت حولها شبكة من القماش الخفيف تحميها من البعوض، لم تكن تفكر الا في شخص واحد: رامون فيغاس، الرجل الذي يخفي وراء قسوته كل هذه الرقة وهذا الحنان، ولمساته التي أشعلت نيرانا في عواطفها ما تصورت يوما أنها ستوقظها بكل هذا العنف. هذه العواطف التي يجب أن تختفي تماما قبل ان تصبح موضعا للسخرية، سواء من رامون نفسه أو من انيز، التي سيسعدها أن تعرف هذه الحقيقة! مهما حدث، يجب أن تبتعد دائما عن

طريق فيغاس، اذا أرادت أن تحتفظ لنفسها بهذا الوقار الذي تتظاهر به.

في اليوم الثاني شعر اعضاء الفريق بشوق لبداية المرحلة الثانية من رحلتهم، ولم تكن تينا في حاجة لمن يدعوها الى اليقظة، والى ترك هذا السرير المعلق، بعد ليلة أخرى من النوم المتقطع، الذي صاحبه اعتقادها بأن العمل، أي عمل، هو راحة بالنسبة اليها. ولذلك، فعندما استيقظ الجميع فوجئوا بهذه الرائحة الجميلة للقهوة، وبرغم أن شهيتهم كانت أقل من الأمس، الا أنهم رحبوا بحرارة بهذه الأطباق الشهية من البوردج..

وامتلأت بالفخر لعبارات الاعجاب التي اغدقوها عليها، امتداحا لطعامها الشهي، وهم الذين كانوا في دهشة من ميلها الى الوحدة، مع أنهم ما زالوا يرحبون بها لتنضم الى هذه المجموعة التي توطدت بين أفرادها روح الصداقة والألفة.

لقد أصبحت معروفة بينهم الآن باسم "العروس الثلجية" بعد تعبير من كثير من التعبيرات والملاحظات التي تعبر عن رأي الرجال فيها، والتي كانت تستمع اليها في ألم، في بداية الأمر فكرت في أنه لن تهمها ما يساورهم من ظنون فهم مجرد مجموعة من الأفراد لن تراهم مرة أخرى بعد نهاية الرحلة، ولكنها الآن تشعر بأنها ضائعة، غير مرغوب فيها، وبأنها وحيدة تماما، ومع أنها كانت تعرف أنها هي التي فعلت كل هذا، وأن الخطأ خطأها هي، فهي التي رفضت كل صداقة عرضت عليها، ولكن ذلك لم يحل دون أن تشعر بالالم وقسوة الوحدة.

وبعد الفطور، خلا المكان مرة أخرى تماما، ولم يعد

هناك أثر يدل على أن القوم كانوا فيه والمعدات القليلة التي
أنزلوها من القارب عادت مرة أخرى اليه، وبدأ زورقهم الطائر
في الانزلاق الى الماء وهم في داخله، وساد الصمت تماما
واختنقت الأصوات في صدورهم، بمجرد دخول الكابتن روجر
الى غرفة القيادة. وتشبثت تينا بذراع مقعدها وهي تشعر
بأصوات المحركات ترتفع، وكانت كل لحظة تحمل معها خوفا
جديدا، وشكوكا متزايدة حول الأخطار المحتملة لكنها تنفست
بارتياح، وارتخى جسدها عندما استقر المركب مرة أخرى في
الماء، وسمعت صوت هديره!

وشعرت بكل متاعبها تثقل كاهلها، وتحت وطأة أعصابها
المتوترة، والنوم الذي قاطعها في الليالى السابقة، سقط
رأسها على ظهر المقعد وهي تراقب الاحراج التي لا تنتهي،
حتى أصبحت كتلة خضراء بلا نهاية، وصمت الجميع، وهم
يتصورون الاخطار التي سيواجهونها بعد ساعات قليلة،
فعندما يقام المعسكر، يكون لكل منهم عمل كاف يشغله، أما
الآن فليس هناك ما يفعلونه سوى الانتظار.

وتحولت أفكارها الى عمتها. كانت تعرف أنها تنوي أن
تتابع تقدم البعثة يوميا على خريطتها، فقد حفظت خطة
سيرهم عن ظهر قلب. وشعرت تينا بالحرارة وهي تحس بأنه
بالرغم من البعد عنها، فان عمتها معها في كل خطوة تخطوها
في رحلتها.

وكانت الأيام الأخيرة التي سبقت رحيلها ثم وصولها الى
مانوس مشحونة بالقلق، لدرجة أنها لم تستطع أن تستوعب
كل التعليمات التي كانت عمتها توجهها اليها. وكان الخوف
يشغلها حتى أنها لم تعرف حقيقة ما تحتويه هذه التعليمات.
لكنها الآن وهي تسير فعلا في قلب الأمازون، في

اتجاه مخاطر "كازيكوير"، بدأت الذكريات تضغط عليها..
فأغلقت عينيها في محاولة لاستعادة ما قالته لها عمتها،
وشيئا فشيئا بدأت الصور تتداعى في مخيلتها، حتى
استطاعت وبالتدريج أن تسترجع كل ما قيل لها:
"وصلت الى كيو وبطريقة غير معقولة، ومن بين آلاف الأميال
من الكروم الكثيفة اشاعة تقول أنه في مكان ما في أعالي
نهر أورينوكو يعيش واحد من المواطنين الذين لم يتلقوا أي
قسط من التعليم، ويعرف بأنه أحد أطباء الأعشاب، وانه
يعالج المرضى بمرض النقرس بدواء مصنع من الأعشاب،
وبخاصة من نبات "الكاسيا" الذي يطلق عليه المواطنون اسم
"سارانفوندين".

كان من الاحلام الخاصة للعلماء، بما فيهم عمتها كريس،
أن يعثروا على علاج لواحد من أكثر الأمراض ايلاما للانسان،
وهو مرض النقرس. ومع أنهم كانوا يتوقعون اكتشاف هذا
النبات، الا أن الامر بالنسبة الى تينا لم يكن يعني أن تبذل
جهدا لتعثر على هذا الطبيب. لقد كانت المغامرات والرحلات
لا تعني بالنسبة اليها هذه الاهداف التي كانت مهمة بالنسبة
لعمتها، او كما كانت بالنسبة الى عائلتها ولكن تينا وجدت
فجأة أن فكرة تحقيق الشفاء للانسانية بالعثور على علاج
لهؤلاء المساكين الذين يشفيهم من المرض، تنبثق فجأة امام
عينيها لتصبح هدفا مثيرا. وفجأة، وجدت نفسها قلقة على
هذه السمعة العظيمة التي حققتها عائلتها في حربها ضد
الأمراض.. وتركز الضوء عليها ليظهر أنانيتها وعدم فهمها
للدور الكبير الذي قامت به عائلتها نحو هؤلاء الذين كانوا في
حاجة الى المساعدة، وغمرها شعور بالخجل من هذه
الأحاسيس التي اجتاحتها في طفولتها والتي صورت

لها أن عائلتها كانت تفضل المغامرات والرحلات على تهيئة الجو العائلي والاستقرار في طفولتها، وكأنها فراشة تحاول الطيران للمرة الاولى! وقد جاهدت للخروج من عقدها الخاصة لتكتشف عائلة جديدة عظيمة. كانت فخورة بهذا الاكتشاف، وشعرت بدافع قوي لأن تتبع خطواتها، وفجأة تبدد كل التعب والارهاق الذي كان ينتابها، عندما فكرت في الفائدة التي ستعود على آلاف المرضى الذين يعانون من الآلام المبرحة.

كانت عمتها كريس تشكو دائما من عدم اهتمامها باكتشاف النباتات، وكانت تستغرب اختفاء هذا النوع من الاهتمام في فرد من أفراد العائلة التي اقترن اسمها بالمغامرات ولكن تينا، أدركت أنها كانت قادرة على هذا العطاء، الذي كان كامنا في نفسها، وربما كان خافيا عنها نتيجة لهذه الطفولة التعسة، ولأحلامها الرهيبة، والحذر الذي كانت تشعر به، ولكنه كان دائما موجودا في باطنها. وأدهشها هذا الاكتشاف: هل هو نوع من الاتصال الروحي؟ هل كانت كريس برغم هذه الأميال التي تفصلها عنها تشجعها لتأخذ الخيط الذي تركته عائلتها، وتتابعه؟ وأثناء البحث عن اجابة لهذا السؤال، تولد تصميم في داخلها، تصميم يحثها على بذل كل جهد للعثور على طبيب الأعشاب.

وتذكرت جيدا، لقد أخبرتها كريس أن هذا الطبيب يعيش مع قبيلة تدعى "جواها ربيوس". وبما أنه ليس هناك دليل قاطع على حقيقة هذه الاشاعة، فقد كان عليها أن ترجو رامون فيفاس أن يغير من طريقه المرسوم. وارتعدت تينا، عندما فكرت في أنها ستحتاج الى طلب المساعدة من رامون الذي يبدو شديد الغضب منذ ليلة الأمس، وهو يتجاهل وجودها تماما، والذي كانت تصرفاته وتعبيرات وجهه

الغاضبة والصارمة مثار تعليق الرجال طوال اليوم. لقد علق فيلكس كريللي على ذلك بأن فيفاس يعيش حالة من القلق، خوفا عليهم من أخطار الدوامات القادمة، لكن تينا كانت تشعر بالذنب والمسؤولية عن هذه الحالة النفسية السيئة التي يعاني منها منذ الصباح، وكانت في حاجة شديدة الى الشجاعة للتقرب اليه. ولكنها كانت متأكدة أنها ستقدم على ذلك اذا ما واتتها الفرصة، فان الكرامة الجريحة يجب الا تقف حائلا أمام خير الانسانية.

وألقى برانستون بجسمه الضخم على المقعد المجاور لها: وقال:

"هل بدأت تشعرين بالخوف يا دميتي، انك تبدين كما لو كنت في انتظار كارثة."

وألقى بيده الخشنة المغطاة بالشعر الأسود الكثيف على كتفها، وواصل كلامه:

"لا تدعي تهديدات رامون تخيفك أو تضايقك، فانا هنا يا عزيزتي."

واستعادت تينا وعيها، تاركة خططها وأفكارها، وكانت نظراتها اليه نظرة المذهول الذي لا يعرف شيئا. ولم تفهم السبب الذي من أجله يحاول اعادة الطمأنينة اليها الا في لحظة التفاتها الى جانب الزورق، ورؤيتها للنشاط المتزايد حولها. لقد عاشت طوال الساعات السابقة ونظراتها معلقة بهذه الكروم التي تمتد الى ما لا نهاية في بعض الأحيان كانت قريبة لدرجة أنها تستطيع لو مدت يدها أن تصل اليها، وفي أحيان أخرى كان النهر يتسع حتى أنها لا ترى أي ظل الخضر على الاطلاق. ولكن، في كل الأحوال، سواء كان النهر متسعا او ضيقا، فقد كان يجري في هدوء خامل، متجها

بهم الى هدفهم· اما الآن، فقد نظرت حولها مضطرة، لترى القلق يسيطر على كل الوجوه حولها حتى على هذا الوجه القاسي، وجه كارامورور· فقد كانوا يقتربون بسرعة من منطقة الدوامات الرهيبة، وملأ الرعب عينيها وهي تنظر بعيدا الى النهر الذي تحول الى كتلة من الزبد الأبيض تهدر مندفعة في طريقها بين حافتين من الصخور الحادة كالموسى، او كتل الصخر الضخم الرهيب التي تعترض طريق الأمواج الرهيبة التي ترتفع ثلاثة أمتار وأربعة لتصطدم بالصخور في عنف وتعود لتصطدم بزورقهم وكأنها تسلمهم من عائق في النهر الى آخر· ولم تتصور تينا أبدا أن زورقهم المسكين يمكن أن ينجو من هذه المياه الرهيبة· وتضاعفت مخاوفها عندما اقتحم القارب الصغير أول كتلة من المياه المندفعة والتي التفت حوله في قوة رهيبة·

وفجأة، توقفت أصوات المحرك· وقبل أن يتكلم احد، اهتز الزورق هزة قوية، جعلتهم جميعا يترنحون فوق كراسيهم قبل أن يتوقف تماما، وكأنه قد سقط بين براثن شلال خطر· والغريب أن أحدا لم ينطق بكلمة، ولم يصدر عنهم أي صوت، وانما أمسكوا جميعا بمقاعدهم، وتعلقت أنظارهم بجوزيف روجرز وفيغاس، وهما في غرفة القيادة يجاهدان حتى لا ينقلب بهم الزورق، وبعد ثوان طويلة من الانزعاج، بدأ صوت المحرك يعود الى الحياة، وعاد هديره يرتفع بهم فوق زبد الموج الأبيض·

وعندما شعر البحارة بان الطريق أصبح واضحا أمامهم الآن، أدركوا أنهم تجاوزوا فعلا دوامات سنفابريل وراءهم، فاندفعوا جميعا الى غرفة القيادة ليقدموا التهاني الحارة الى جوزيف روجرز الذي وقف سعيدا الآن ومعه رامون

فيغاس، الذي بدا مرتاحا·

وقامت تينا بحركة لتشاركهم التهنئة، وتبلغهم شكرها واعجابها بهذه الطريقة التي استطاع بها الرجلان أن يعبرا ما تصورت أنه المستحيل، لكن ثيو برانستون مد يده ليمنعها، وعبر صوته عن الغيرة والحقد وهو يقول:

"أنت أيضا تخضعين لسحر هذا البرازيلي·"

ولم يذكر أبدا ما حدث بالامس· وتصورت تينا أنه قرر تجاهله، لكنها عرفت الآن أنه لم ينس أبدا، وأنه أغلق قلبه على ذروة الحقد والكراهية، للرجل الذي أجبره على الانسحاب!

وتمتمت وقد ارتفعت الدماء الى وجهها:

"لست أدري ماذا تقصد·"

"اذن سأقول لك بكل وضوح·"

قالها بصوت ساخر، وأدار لسانه حول شفتيه المكتنزتين كالصياد عندما يواجه فريسته التي لا حول لها ولا قوة، لدرجة أنها ارتعدت من الخوف:

"في المستقبل، أتوقع منك أن تعامليني بطريقة تجعل رامون وعصابته يعتقدون أننا أكثر من أصدقاء!"

وامتقع وجهه غضبا، عندما لاحظ أنها تستعد للاعتراض، فاشتد صوته قسوة وقال مهددا:

"اذا لم تخضعي لهذا الاتفاق، فلن أتردد أبدا في اعلان حقيقتك أمام فيغاس انك زائفة، وغشاشة ومحتالة صغيرة·"

ورفعت تينا رأسها، ولم يبد على صوتها أي دليل على الاضطراب الذي تعانيه، وقالت:

"انني متأكدة من أنك تستطيع أن تفعل ذلك، وأنك ستكون سعيدا أيضا وأنت تقوم به، فليس هناك شك في أنك

معتاد على التجسس على الناس، ولكن ما رأيك اذا طلبت اليك أن تقوم الآن وتفعل ما يحلو لك؟ ما الذي أخاف منه الآن؟ لقد أبحرنا بعيدا، وليس هناك طريق للعودة الآن. ولا أظن أن رامون فيغاس يغامر بالعودة بي فوق الدوامات الرهيبة، خصوصا اذا عرف أن بقائي معكم هو في الواقع عقوبة لي، أشد من العودة!"

وضيق برانستون عينيه وهو ينظر اليها، بينما واصلت هي المقاومة:

"وما رأيك في صورتك أنت في نظر الباقين عندما يعرفون أنك تبتزني وتهددني؟"

وألقت بسهمها الأخير، مستطردة:

"سيبعدونك عن أية رحلة طوال حياتك، خاصة عندما يصبح عملك هذا معروفا من الجميع."

"أنت تمزحين يا دميتي. لماذا لا تعترفين بالهزيمة وتخضعين لشروطي؟ لن تتحملي أبدا أن يشك رامون في حقيقة شخصيتك. في كل حال، انا لا أطلب منك أكثر من أن تسعديني بصحبتك، وابتسامة أو اثنتين فما المانع من قبول هذه الرغبة. كثيرات من السيدات يتمنين ذلك؟"

وبينما كان هو يمجد نفسه، كانت تينا تحاول جمع أفكارها المشوشة! انها تكره الرجل وتشمئز لمجرد لمسة منه، ولكن اذا كان كل ما يطلبه منها هو مجرد الصداقة، فمن الغباء أن ترفض ذلك. وأخذت تذكر نفسها، كيف كان وجوده بالامس معها مفيدالها، وربما احتاجت اليه والى خبرته خلال الاسابيع القادمة في قلب الأدغال، حتى يمكنها أن تتجنب الأخطاء، وأن تستمر دون أن يظهر منها ما يفضح عدم خبرتها. والأهم من ذلك، يجب أن يظل صامتا، فكيف يمكن أن تقنع

رامون فيغاس بمساعدتها في العثور على طبيب الأعشاب، اذا عرف حقيقة شخصيتها المزيفة، وأيضا فان الدوافع الجديدة التي ولدت في نفسها أخيرا ليست كافية كي تطرد مخاوفها تماما. وعلى ذلك فان صحبة ثيو برانستون برغم من أنها لا ترحب بها قد تكون خيرا في بعض الأحوال. واتخذت قرارها، وشعرت بأنها في حاجة الى شيء من الدبلوماسية كي تتحدث اليه. ابتسمت وقالت:

"حسنا انني أقبل اقتراحك مقابل عدم التحدث عن حقيقتي الى رامون فيغاس، ولكن.."

وأضافت بعنف، عندما لاحظت ابتسامة الانتصار على وجهه، ومحاولته للامساك بيدها:

"سيد برانستون. ليس في نيتي اطلاقا أن أسمح لك بان تأخذ حريتك في التصرف معي. يجب أن تذكر ذلك جيداً."

"اذا كنت قد وافقت على صداقتي، فما رأيك في أن نبدأ بأن تناديني باسمي الأول ثيو."

وأحنت رأسها موافقة. ان كل أعضاء البعثة رفعوا الكلفة فيما بينهم، حتى رامون صار يتعامل معهم بالطريقة نفسها، ويناديهم جميعا باسمهم، ما عداها هي، فقد كان تصرفها البعيد عن التجاوب مع المجموعة لا يشجع أحدا على الاقتراب منها، بل بالعكس، كان يسبب لهم الاضطراب.

وفجأة سمعت صوت الآنسة انيز، فرفعت رأسها بسرعة، لتراها واقفة تنظر اليها، وبجوارها رامون فيغاس.

قالت انيز بلهجة هازئة:

"ما رأيك يارامون. ألا يبدو عليهما الانسجام؟ لن تكون مفاجأة لو أننا انهينا هذه الرحلة بحفلة زفاف."

وأطلق ثيو ضحكة صاخبة، وانحنى ليمسك بيد

تينا ٠ ويضغط عليها ٠ فشعرت بالغضب، واضطرت الى الصمت، والى احتمال نظرة التجاهل الباردة التي ألقاها عليها رامون وهو يقول:

"هل شعرت بأية متاعب ونحن نعبر الدوامات؟ أرجو ألا يكون ذلك قد حدث يا آنسة٠"

"طبعا لا٠"

كان هذا هو الرد السريع الذي صدر عن ثيو٠٠ وهو يشعر بالثقة وهي بين يديه، مما دعاه الى أن يستطرد:

"ألم أقل انني وعدت بحمايتها!"

فقال رامون بصوت حزين:

"أنا متأكد انك قمت بواجبك خير قيام٠"

فقالت انيز وهي تتعلق بذراع رامون في دلال:

"هيا يا رامون٠٠ يجب ألا نضايق العصفورين العاشقين أكثر من ذلك!"

وفي غضب ظاهر قالت تينا:

"يبدو يا آنسة انيز، أنه من المستحيل أن تقوم صداقة بين الجنسين في بلادكم، كما يحدث في بلادنا، فاذا كانت هذه هي الحقيقة، فسأكون من الكرم بحيث أغفر لك ضيق تفكيرك، بدلا من أن يضايقني كلامك!"

وساد جو من الصمت والدهشة٠ وسمعت ثيو يضحك ضحكة صغيرة مكتومة، ثم استدارت لتواجه الغضب الجامح في عيني فيغاس٠ كانت تينا تعرف أنها واجهتهما بوقاحة لكنها لم تكن مستعدة للاعتذار لانيز التي دل لون وجهها على مقدار الغضب الذي لحقها من الاهانة، وضغطت تينا على أسنانها وهي تراقب تحركاتها الغاضبة في اتجاه رامون، وكأنها تطلب منه الحماية، وضغطت على شفتيها بشدة حتى

تمنع نفسها من الاندفاع في مواصلة كلماتها المتأثرة وهنا تحدث رامون فيغاس فقال:

"انيز: أنا متأكد أن الآنسة دونيللي لا تقصد اهانتك، وستخبرك بذلك بنفسها عندما تعد اعتذارها في وقت آخر٠"

ولم يستمع الى تينا وهي تقول: مستحيل٠٠ لكن تعابير وجهه أصبحت قاسية وجادة، حتى أنها أدارت وجهها بعيدا، وهي تشعر بالتعاطف مع ثيو لموقفه المشابه لموقفها، والذي وقع له في الليلة السابقة٠

وهزت رأسها في حركة سخرية، وهو يساعد انيز على الجلوس في مقعدها، ولكن، لقد كان هناك شعور غامض في أعماقها يؤكد لها أن رامون لم يقل كلمته الأخيرة بعد في ما حدث٠ لكن المؤكد أنه لم يكن أبدا من النوع الذي يسمح لأحد بأن يتجاهل أوامره٠

٥ – لقاء على ضفة النهر

استقر المقام بالجماعة في قاعدة المعسكر التي أقاموها، في قلب الأمازون تماما، في منطقة كازيكوير. وكانت تينا تشعر بمعاناتها تتزايد يوما بعد يوم، مع تزايد الأدغال الكثيفة التي أصبحت وحدها كل شيء يحيط بهم، حتى أنها تصورت أنه لم يعد هناك شيء في العالم سوى الأدغال الخضراء، والمياه الراكدة السوداء. فالأشجار تتعالى الى السماء وتتشابك قممها العالية لتكون ستارة سوداء تمنع أشعة الشمس من اختراقها على ضفتي النهر، بينما الأغصان المنخفضة الكثيفة تتمايل في تثاقل حول جذوع الشجر الضخمة، وكأنها عباءة سوداء تخفي وراءها رعبا على وشك الانطلاق.

وكان عليهم أن يبقوا في مكانهم مدة أسبوعين، حتى يتمكن العلماء والجغرافيون من معرفة انواع النباتات والحياة عند قاعدة النهر. وفي هذا الوقت قررت تينا أن تسأل رامون فيغاس أن يسمح لها بتكوين فريق صغير للتوغل في المنطقة، بحثا عن طبيب الأعشاب، ولكن. كيف يمكنها أن تسأله؟

منذ الصدام الذي وقع بينها وبين انيز، تركها الجميع وحيدة، ماعدا ثيو، ولكن في كل مرة كانت عيناها

تلتقي بعيني رامون، كانت تقرأ فيهما أمرا لها بأن تعتذر الى انيز التي بقيت متعالية في برود. وكانت تعلم أنها يجب أن تحقق طلبه اذا أرادت أن يحقق لها طلبها.

لكن الامر كان يزداد صعوبة كلما فكرت فيه: كيف يمكن لها أن تذل كرامتها أمام امرأة متخصصة في الظهور أمام الرجال في أجمل صورة ممكنة كي تجذبهم. ولكن، كل شيء ممكن في سبيل العلم.

وسنحت لها الفرصة عندما توقف الزورق، فقد كان كل أعضاء البعثة مشغولين في تفريغه من متاعهم ومعداتهم حتى يمكن لجوزيف روجر وبحارته أن يفحصوه ويتأكدوا من سلامته بعد الرحلة الشاقة.. ونظرت حولها ورأت انيز تقف وقفة مرسومة تراقب بكسل الحركة التي تدور حولها، ولاحظت تينا أنها تمسك في يدها مبسما طويلا انيقا فيه سيكارة لم تشتعل بعد، وهي تنظر الى الرجال المشغولين، طلبا لمن يشعلها لها. ورسمت تينا ابتسامة على شفتيها، في غمرة انشغال الجميع بتنظيم أمورهم. لم يكن لدى أي واحد منهم لحظة يلقي فيها نظرة الى انيز التي استدارت يائسة وضجرة لتبحث في جيوبها عن علبة كبريت!

وقاومت تينا كبرياءها ومدت يدها بولاعتها اليها وقالت لها ببرود:

"هل يمكن أن أساعدك!"

وحملقت انيز فيها وتراجعت تينا الى الوراء وهي ترى اللهب البرتقالي يعكس هذه الكراهية العميقة في نظرات انيز.. وتنفست تينا في فزع بينما ضحكت انيز ضحكة صفراء وهي تطلق سحابة من الدخان بينهما، وكانت كل ذرة في جسمها تدعوها للفرار بعيدا عن المرأة التي تركت

مظاهر الكراهية واضحة عليها، وقاومت نفسها بضراوة وهي تتذكر الهدف الذي تسعى اليه. وقالت:

"يا آنسة."

رفعت انيز حاجبيها في دهشة وأجابت:

"نعم؟"

ارتعش صوت تينا وهي تقول:

"انني مدينة لك بالاعتذار. خرجت عن حدودي تماما معك. واود أن تعرفي أنني آسفة جدا."

رفعت انيز كتفيها بازدراء، وعدم اهتمام، وعيناها تبحثان بين الرجال لترى ما اذا كان واحد منهم انتهى من عمله وأصبح مستعدا لتسليتها، لكن الرجال كانوا في قمة نشاطهم عندئذ استدارت الى تينا وقالت:

"آنسة دونيللي، هل تتصورين أنني أهتم لحظة واحدة بما تقولين؟"

وحدجتها بنظرة احتقار، قبل أن تواصل كلامها:

"انني لا أهتم اطلاقا بتفاهات امرأة انكليزية معقدة، خائفة من الحياة ومن الرجال، امرأة باردة تضع نفسها في قوقعة ثلجية، وترتعد كلما وجهت اليها كلمة اعجاب عادية."

وأطلقت ضحكة عالية تنطق بالاحتقار، أشد في قسوتها من الكلمات المهينة التي وجهتها الى تينا التي جمعت أصابع يديها في قبضة عندما شعرت بهما ترتعدان. "باردة".. "معقدة".. آه لو تعرف انيز مقدار الحرارة التي في قلبها، اذن لغيرت رأيها في الحال.. وضغطت تينا على أسنانها الصغيرة وهي تستعد للمعركة. انها لم تشعر طوال حياتها بالظلم والاضطهاد كما شعرت بهما منذ بداية هذه الرحلة. لكنها في الطريق اكتشفت وجوها أخرى خفية في طبيعتها

لم تكن تعرفها، لقد كانت تخفي تحت ستار الوقار الذي حملته سنوات طويلة، مشاعر فياضة ناعمة، أنعم من شعرها، وفي اللحظة التي فتحت فمها لتنطق بالرد على انيز، ارتفع صوت فيغاس حولهما وبصوت رقيق، وبطريقة غير عادية، قال مخاطبا الاثنتين:

"انني سعيد لأني أراكما معا، وقد أصبحتما صديقتين، وتغلبتما على الخلافات بينكما."

واستدارت الاثنتان معا. كانت عيناه تتجولان بينهما، بنظرة استفسار رقيقة أرسلها الى انيز، بينما نظراته الى تينا ما زالت تحمل الشك واللوم ووجهها مازال مشدودا بالغضب، مما دفعها الى الضغط على أعصابها بسرعة لتزيل كل شك في ذهنه. في هذه اللحظة، مدفوعة بحاسة الانثى، شعرت بأنها يجب أن تنتصر على انيز في هذه اللعبة اذا أرادت ألا تبقى في قائمة رامون السوداء الى الأبد. واستدارت لتبتسم لغريمتها بابتهاج، متجاهلة دهشتها التي قطعت منها الانفاس واتسعت ابتسامتها وهي تقول:

"أعتقد أن الآنسة وأنا قادرتان على تخطي بعض المشكلات الصغيرة بغير تشجيع منك يافيغاس. طبعا نحن صديقتان. وأنا متأكدة أنه عند نهاية الرحلة سنجد بيننا أشياء كثيرة مشتركة أليس كذلك يا انيز؟"

كانت سعيدة وهي تراقب المعركة الدائرة في نفس انيز، قبل أن تتخذ قرارها فقد أدركت الاخيرة أنها سوف تبدو مخطئة في نظر رامون اذا رفضت هذه الصداقة، ومن ثم يجب أن تتغلب على هذا الموقف، حتى لو كانت ترى هذه النظرات الضاحكة الخبيثة في عيني تينا التي تخفيها تحت ستار من الابتسامات الكاذبة.

وبمجهود خارق نجحت في أن تبتسم، ردا على ابتسامات تينا، وأن تطلق ضحكة صغيرة مغرية، استطاعت أن تخدع بها رامون:

"رامون.. طبعا نحن صديقتان. كيف يمكن أن تتصور شيئا آخر؟"

"في هذه الحالة، هيا لترى كل منكما المكان المخصص لها، قبل أن نجلس للعشاء."

طوال فترة العشاء، تغيرت أحوال تينا تماما. للمرة الاولى تسير الامور كما تشتهي. والانتصار الرائع الذي شعرت بأنها قد حققته في مواجهة أنيز أعطاها ثقة قوية للحديث مع الرجال كما لم تجرؤ من قبل وحين جلسوا حول نيران المعسكر، في دائرة واسعة، يأكلون "الكاري" الذي اعده لهم فيلكس كريللي الذي كان مسؤولا عن المطبخ في ذلك المساء، استطاعت أن تشق طريقها وسط الأحاديث الدائرة، بسهولة أدهشت زملاءها الذين كانوا جميعا سعداء بها، ماعدا ثيو الذي كان متضايقا من هذا الانطلاق الجديد منها، والذي يمثل انتقاصا من اهتمامها الخاص به. انه لا يستطيع أن يشكو من تجاهلها له فقد أعطته من اهتمامها قدر ما اعطت الباقين، ولكنه كان شعور من يملك شيئا، وفجأة، وجد كثيرين غيره يشاركونه فيه.

وقام ثيو، باصطحاب تينا الى سريرها المعلق، ولكن قبل أن تستدير لتتركه، جذبها من كتفيها، واخطرها الى مواجهته. قاومت عنفه بحدة وهي تهتف به:

"ثيو انك تسبب لي الألم."

واجتاحتها موجة من الخوف، وهي ترى عينيه تلمعان في الظلام. وحاولت التملص لكنه انقض عليها وحاول ان

يطوقها بذراعيه، فانتفضت مذعورة وقالت:
"اياك أن تلمسني ثانية، هل تسمعني؟ اذا حاولت أن تقترب خطوة واحدة فساصرخ طالبة النجدة!"
"أعتقد أنك تفضلين جذب انتباه هذا الرجل البرازيلي. هل تعتقدين أنني لم ألاحظ الطريقة التي تنظرين بها اليه في اللحظات التي تصورت فيها أن أحدا لا يراقبك والطريقة التي تلمع بها عيناك عندما تلتقيان بنظراته؟"
"لا تكن غبياً، انك تترك لخيالك أن.."
وقاطعها بعنف: اذن لماذا كنت تهتمين بكل كلماته وحركاته ؟"
وفكرت بسرعة في أن تجد عذرا وتمتمت:
"ذكرت لي بنفسك أن رامون قد عقد خطبته على انيز، فلماذا أضيع وقتي مع رجل هو خطيب امرأة أخرى؟"
وضاقت عيناه. وترددت ابتسامة على شفتيه ولدهشتها الشديدة، اذا هو يتنهد من أعماقه، ثم راح يضحك بسعادة واضحة:
"ماذا أنت أيتها الشيطانة الصغيرة الماكرة. تفعلين ذلك لتضايقي انيز، انك تكرهينها، وتحاولين الحصول على صديقها لتلقينها درسا."
وشعرت بصدمة: ان ثيو وحده في هذا العالم يمكن أن يتصور هذا التصور، ولكن اذا كان ذلك سيبعده عن متابعة ما يحدث بينها وبين فيفاس، فلتدعه يعتقد بصحته وابتلعت ريقها بصعوبة، واحنت رأسها بالموافقة، وشعرت براحة يصاحبها الاحساس بالعار وهو يطلق ضحكتين، معبرا عن فهمه، ثم استدار عائدا الى سريره.
وعندما اختفى في الظلام، شعرت تينا بالتوتر،

والأرق. قررت أن تتجول حول المعسكر، الى أن تسترد هدوءها ونزلت الى شاطىء النهر، واستندت الى شجرة.
كان النهر رائقا وناعما تحت غلالة من الظلام، تخترقها أشعة القمر المتلألئة، والموج الرقيق يهمس للشاطئين وركعت على ركبتيها لتدلى أصابعها في الماء بحثا عن بعض الترويح في مياهه المنعشة الباردة. وفجأة سمعت صوتاً يدوي في اذنيها بغضب:
"هل أنت مجنونة هل أنت معتوهة تماما!"
ولدهشتها الشديدة، شعرت به يهزها هزة جعلت أسنانها تصطك، ورأسها يتحرك الى الامام والى الخلف في مقاومة ضعيفة، وكأنها دمية من القماش. كان الهجوم سريعا، وعندما استطاع أخيرا أن يسيطر على أعصابه لدرجة تسمح له بالكلام، وجه رامون فيفاس اليها الحديث بصوت حاول بكل طاقته أن يسيطر عليه:
"حسنا دافعي، اذا استطعت، عن جريمتك الخرقاء."
وأفاقت فجأة، وتراجعت الى الخلف، وحملقت في وجهه غير واعية بما حدث. كانت نظراتها الخائفة تحدق في وجهه الغاضب الوحشي، وكأنها طفل عوقب لغير سبب. وارتعدت يداها وهي ترفعهما لتعيد تثبيت المشابك في شعرها وقالت:
"أنا لا أفهم شيئا ما هو الخطأ الذي ارتكبته؟"
"تتساءلين عن الخطأ الذي ارتكبته؟ هل تقصدين أنك نسيت كل شيء عن "البيراناس"؟"
"قرأت طبعا وسمعت أيضا عن هذه الاسماك الصغيرة الرهيبة، آكلة لحوم البشر، التي تستطيع أن تحول الرجل الى هيكل في لحظات" وجعلها رد الفعل ترفع يديها الى أعلى أمام عينيها، وكأنها تبحث عن أصابعها لترى ما اذا كانت ما

تزال في مكانها.

وقال هو بضيق وغضب:

"كنت محظوظة يا آنسة دونيللي فمن المعروف الرجل اذا وضع يده في هذه المياه، فانه عادة يخرجها بلا أصابعه ما الذي جعلك بحق السماء تقدمين على هذا التصرف؟ لو كان في يدك جرح صغير جدا، لاندفعت اليك جماعات الأسماك المتوحشة - وقد جذبتها رائحة الدماء - لتخلص لحمك من عظامك."

وارتعدت، ومادت الأرض تحت قدميها، وهي تتصور لو أن هذا حدث بالفعل وكان من المستحيل أن تشرح له أنها كانت تحاول نسيان مخاوفها وسط هذا الجمال الذي يحيط بها، ولم يكن ممكننا أن تقول له ان الاسماك لا تهاجم شخصا ليس فيه أي جرح بدليل هؤلاء الزنوج الذين يسبحون وسطها دون أن يحدث لهم أي ضرر.

وجذبها خارج الظلال الى ضوء القمر الساطع وقال:

"كما ذكرت من قبل يا آنسة دونيللي، انك اما عظيمة او غبية، ولكن في كلا الحالتين لا يمكن أن تكوني قادرة على تحمل مسؤولية بقائك وحدك في الأدغال ولو لحظة واحدة."

وأفقدتها الصدمة الوعي، لم تستطع أن تفعل شيئا الا أن تتراجع وهي تحدق فيه بعينين ملأهما الخوف. وكأن شعرها الطويل الكثيف، أخجله أن يظهر جماله في وجه هذا الاحتقار البالغ، فسقط آخر مشبك فيه لينسدل على كتفيها. وشعرت بقبضته تتراخى على كتفيها. ورفعت رأسها بتوسل ليغفر لها وشعرت بأنه نجح فقط في أن يتماسك، وأنه يقاوم صراعا في نفسه لادراكه أنه أمام أنثى. وأحست مرة أخرى أنه الوحش الكاسر الذي يحوم في قفصه بحثا عن حريته، وهربت من الشيطان الذي يقبع في عينيه العميقتين، لكنها لم تنجح

في الهرب من قبضته، فقد جذبها اليه بشدة، لتلتصق بصدره القوي. وأمسك خصلة من شعرها، ولفها حول ذراعه الأسمر، لتكون تناقضا بين يده بلونها القاتم وشعرها اللامع الرائع وكأنه سوار من الذهب الطبيعي حول يده وحمل اليها صوته، نشوة كتلك التي شعرت بها عندما ضمها. وقال برقة:

"كنت أشك في أن الجليد يمكن أن يستمر في هذا المناخ الحار."

وأفاقت من غيبوبتها على صوت ضحكة جافة، خالية تماما من المرح، يرن صداها في المنطقة الخالية. وملأها شعور بالاشمئزاز عندما استدارت لتجد ثيو واقفا وسط الفضاء يحدق فيهما. كان فمه يطلق ضحكة خبيثة، تتناقض بضراوة مع الغيرة الوحشية التي تنطلق من نظراته. وانتبهت، كان من الواضح أن ثيو يستعد للهجوم، وشعرت بالرعب وهي تتوقع السلاح الذي يستعمله لينتقم من رامون.

"رائع يا تينا نجحت في تنفيذ كل ما خططت له. لقد كانت فكرة جريئة أن تعاقبي انيز باختطاف صديقها المقرب."

كان قلبها يدق كالطبل في الصمت السائد. كانت تريد أن تصرخ مستنكرة، ولكن ذلك لن يجدى في وجود ثيو ربما يمكنها أن تجعله يفهم في وقت لاحق عندما يكونان وحدهما. ولكن هل ستجد هذه الفرصة؟

مرة أخرى. قبض رامون على كتفيها بقبضتيه، وأجبرها على مواجهته، وسأل:

"هل ما قاله صحيح؟"

وترددت وهي تحاول أن تشرح له:

"لا. ليس تماما. على الأقل.." لكنه قاطعها بقوة:

"أجيبي، هل ناقشت هذه الخطة مع برانستون نعم أم لا؟"

واستجمعت كل ما تملكه من قوة لتتمكن من الاجابة وهمست:

"نعم ولكن..."

واستحال وجهه الاسمر الجميل، الى خطوط شرسة من الاحتقار، احتقار حاد، لا يمكن أن يصدر الا عن رجل يملك قدرا عظيما من الكبرياء، ورثه عن أجيال متعاقبة من الأسلاف المتعجرفين.

وبعد ثوان دار على عقبيه بهدوء واختفى في الظلام!

٦ - قرار مفاجىء!

خلال الأيام القليلة التالية، اغرقت تينا نفسها في العمل، تجوب الأدغال القريبة بحثا عن النباتات الغريبة والمفيدة تصنفها وتكتب ملاحظاتها ، في شأنها وتجففها. ولكن الاستغراق في هذا العمل وملاحظة ما حولها، لم يستطع أبدا أن يمحو الحقيقة التي تحيط بها. وكانت اكتشافاتها في هذا الصدد خليقة بأن تكون مثيرة للغاية بالنسبة اليها، سواء في ما يتعلق بالنباتات التي لم ترها من قبل الا كامثلة بلا حياة، مرصوصة في المتاحف، أو في ما يتعلق بهذه الاشياء الجديدة المثيرة التي تعثر عليها في كل خطوة من خطواتها المترددة في الأدغال المجهولة. لكن حتى هذا الجمال الذي يبهر الانفاس لزهور الاوركيد المتوحشة، بأغصانها ذات الاشواك الرائعة وهي تمتد وتتجمع فيما يزيد على عشرات الآلاف فوق الغصون الخضراء، لم يستطع أن يجذبها بعيدا عما حدث لها اخيراً.

انها كلما استرجعت ذكرياتها، شعرت بفيض من الخجل والعار يغمرها. وساءلت نفسها آلاف المرات كيف أمكنني أن أفعل ذلك؟ ما الذي دفعني الى أن ألقي بنفسي بين أحضان رجل لم يفعل أكثر من التظاهر بقليل من التجاوب

معي، لينقذني من الخجل؟ ولم تستطع أبدا أن تجد عذرا مقنعاً، كانت تستطيع أن تتظاهر بأن عنف الصدمة التي عانت منها عندما جذبها بعنف لينقذها من الأسماك القاتلة المخيفة، أخمد عقلها وسلبها ادراكها، لكنها كانت أمينة لدرجة لا يمكنها معها أن تخدع نفسها. لقد تجمع حولها خليط من سحر الليالي الاستوائية، وشعورها بالسعادة، وقربه الشديد منها. فساعد ذلك كله على خلق المناخ الذي دفعها الى ما حدث. وشعرت بقليل من الراحة، وبقليل من الشكر لتدخل ثيو في الوقت المناسب. لم يكن رامون مهتما بأن تكون مشاعرها في تلك الليلة نابعة من قلبها، وها هو يتصور الآن أنها لم تكن الا مجرد مشاعر تظاهرت بها لتضايق انيز.

وبعد ثلاثة أيام من الأفكار المتضاربة، ومن العمل الشاق، وجدت نفسها ما تزال بعيدة عن تحقيق خطتها بسؤاله أن يسمح لها بالبحث عن طبيب الأعشاب. فانها لم تكن قادرة على الاقتراب من رامون فيغاس أو اتخاذ قرارها في هذا الشأن. كانت نظراته الجامدة تمنعها من مجرد التفكير في الاقتراب منه. عشرات المرات حاولت أن تذهب اليه، ولكنها كانت تتردد، الى أن تضيع منها الفرصة. واستمر الحال كذلك حتى الليلة الثالثة، وخلال الاجتماع الذي يعقب العشاء فهناك استطاعت أن تجمع قدراً كافياً من الشجاعة لتعرض موضوعها.

كان الجميع يلتقون حول نيران المعسكر يستريحون، ويتحدثون عن التقدم الذي أحرزوه خلال أعمالهم اليومية. وكان رأس رامون الاسمر منحنيا على انيز، عندما انطلق سؤال تينا بلا وعي منها:

"سيد رامون هل يمكن أن تسمح لي بتكوين فريق صغير للبحث عن "الجواهاريبوز"؟

وتوقفت أنفاسها مع توقف الأحاديث بين الجميع، واستدار رامون ليوجه اليها نظراته وواجهت قسوته بهدوء يخفي خلفه دقات قلبها الذي توقف عن التنفس.

"الجواهاريبوز؟ الا تعرفين ان هؤلاء الناس ينحدرون من قبائل متوحشة آكلة للبشر، وهم لم يتحضروا الا منذ وقت قصير، وربما عادوا الى عاداتهم اذا دخل غريب أرضهم؟ انني أريد أن أعرف سببا هاما يدعوك الى هذا الطلب الغريب يا آنسة دونيللي؟"

اندفعت فورا تشرح السبب. نسيت تماما عصبيتها وخوفها، رفعت رأسها الذي تصاعدت اليه الدماء، وردت على نظرته القاسية بتوسل، طالبة منه أن يقدر ويدرك، وهي تشرح له رغبتها في العثور على طبيب الأعشاب واستمع هو صامتا، حتى لم يعد لديها مزيد من الكلام. وعندما تصورت أنها لمحت شعلة من الاهتمام تومض في وجهه الذي يرتدي قناع اللامبالاة، ارتفعت روحها المعنوية. ولكن قبل أن تتزايد آمالها، ارتفعت ضحكة ساخرة من انيز، وهي تعلق في مرح:

"يالها من رغبة غبية، انني لم أسمع أبدا عن شيء أكثر غرابة من ذلك."

ثم سخرت من تينا قائلة:

"يبدو أنك ساذجة تماما. هل تعتقدين أن طبيبا بدائيا قذرا يعرف عن معالجة الأمراض أكثر مما نعرف نحن الأطباء والجراحين؟

وردت تينا بهدوء:

"هل اخترع الأطباء أدويتهم يا آنسة؟ لقد انتجت النباتات الدواء أولا وما زالوا يصنعون الادوية المشابهة مثل الكينين والبنسلين. انني أعترف بأن المعامل الهائلة للكيمائيين

في جميع أنحاء العالم تتفوق على الانتاج النباتي، لكنهم يعتمدون دائما على القليل من النباتات التي يدرسونها لولا مثل هذا الطبيب الذي يعترض طريقهم أحيانا بالصدفة، أو أولئك العلماء وجامعي النبات، الذين يتبعون أي خيط ولو كان ضعيفا من أجل الوصول الى مثل هذا النبات والتحقق من فوائده."

"رائع يا تينا رائع."

وكشف صوت ثيو عن ضحكة خبيثة، وهو يتدخل في الحديث:

"عرضت موضوعك بطريقة واضحة في الحقيقة، وأؤكد لك أنه بعد ذلك لن يسع أي رجل أن يرفض مساعدتك في بحثك. الا اذا.."

وابتسم بتحد لرامون، وواصل كلامه:

"الا اذا كان خائفا من التعامل مع المواطنين وأسلحتهم السامة. في هذه الحالة سأكون سعيدا باصطحابك الى القرية بنفسي."

قاطعه رامون فيفاس قائلا:

"برانستون انك لن تفعل شيئا من ذلك فانا المسؤول عن اتخاذ القرارات هنا. وبما انني مسؤول عن كل حركة من حركاتكم، فانني لن أسمح لأحد بارتكاب الحماقات."

وزمجر ثيو محتجا، لا شيء يمكن أن يوقفه الآن، لقد استطاع أن يقلب المائدة على الرجل الذي استطاع أن يقلل من شأنه للمرة الاولى في حياته. كان طعم الانتقام حلوا، وذكرى انتصاره تعيش مرحة في اعماقه وتعطيه قدرا من الثقة والأمان، في وجود الرجل المهزوم.

لكن نظرات رامون الباردة انتقلت من وجه ثيو

المنتصر لتتسمر على وجه تينا المنحني الذي رفعته بسرعة عندما سمعته يخاطبها:

"يا آنسة، انني أحترم دوافعك الى ابداء هذه الرغبة. كما اني اقدر احترامك لما فعله علماء النبات. لكن طلبك مرفوض تماما حتى ولو كان الرجال يرغبون في الذهاب معك انني لن أسمح لهم بذلك فالمخاطر عظيمة جدا."

وارتفع همس متعاطف في صفوف الرجال وقد لاحظوا خيبة الأمل الواضحة التي ظهرت على وجه تينا وعبر فيلكس كريللي عن شعور الجميع بقوله:

"سيد رامون، هل هذا هو قرارك الأخير؟ من العار أن نكون بالقرب من الهدف الذي تسعى تينا اليه، ومع ذلك نقف عاجزين عن تحقيقه. انني شخصيا على استعداد للتطوع بالذهاب معها الى القرية، اذا رسمت لنا الطريق."

وارتفعت الأصوات مؤيدة، فانتعشت آمال تينا. تصورت أنه لن يرفض الطلب، بعد هذه الموجة من مشاعر البطولة، لكن آمالها لم تلبث أن تبددت وهي تستمع اليه يتحدث!

"ان الجواهاريبوز لن يصيبونا بالضرر اذا بقينا جميعا معا ولكن اذا سمحنا لمجوعة منا بالانقسام والرحيل فسوف تكون المخاطر رهيبة جدا."

ورد فيلكس:

"ولكن يا سيد، اننا لم نر واحدا من هؤلاء الوطنيين منذ وصلنا الى هنا، ما الذي يجعلك متأكدا من أننا اذا قابلناهم فانهم سيعاملوننا بعداء؟"

زوى رامون ما بين حاجبيه في تقطيبة غاضبة، وتحولت لهجته الى الشدة والعنف وهو يجيب:

"نحن لا نتعامل مع قبيلة من الأطفال الأبرياء

ان "الجواهاريبوز" متوحشون من أكلة البشر، وان اتصالهم بأول رجل أبيض لا يزيد عن شهور قليلة مضت. أما بالنسبة لعدم رؤيتك لواحد منهم حتى الآن.."

وحمل صوته رنة التحذير، وهو يستطرد: "قد يسعدك أن تعرف أن عيونهم تتبعنا في كل مكان نذهب اليه منذ وصلنا الى هنا، منذ اللحظة التي وضعنا أرجلنا فيها على أرضهم!"

ولم يسمح لهم بأكثر من التحديق فيه وهو يواصل:

"لو كنت قوي الملاحظة بعض الشيء، للاحظت أضواء معسكرهم في الليل. كما أن بعض الحلى التي علقتها على الأغصان حول المعسكر لم تمس حتى الآن. ولكن في كل صباح أجد الدليل الذي يثبت أنهم توقفوا على بعد أمتار قليلة منها."

وتحطمت آمال تينا عندما نظرت حولها لتجد الرجال غير قادرين على مواجهة نظراتها المتوسلة. وحركت نظراتها بسرعة بعيدا عن هذه العيون الزرقاء الحديدية التي بدا فيها أنها تغتبط بهزيمتها. وبحركة آلية رفعت كتفيها في استسلام ولكن قبل أن تترك دائرة الضوء، سمعت أمرا صادرا اليها:

"آنسة دونيللي، أريد التحدث معك في الصباح فارجو ان تأتي الي بعد الفطور مباشرة."

اشارت برأسها بعلامة الموافقة، دون أن تنظر الى الجهة التي صدر منها صوته، ثم سارت وقد غامت المناظر في عينيها فلم تعد ترى شيئا حتى وصلت الى سريرها. وتعذبت كثيرا قبل ان تستسلم الى النوم.

وبعد الفطور مباشرة، أسرعت تقف بوجهها المتعب، وفمها المرهق، وعينيها المتورمتين من السهر أمام رامون

فيغاس. كان الرجال جميعا قد تركوا المعسكر الى أعمالهم، حتى انيز اصطحبت الاخوين بريكلنغ لتقف أمامهما في عدة أوضاع للتصوير بين المناظر البدائية الباهرة، لتوضح التناقض بين الطبيعة والصنعة، وهكذا بقيا وحدهما، وكانت كلمته الأولى لها:

"ماذا حدث لك هل أنت مريضة؟"

وفوجئت بالخشونة غير المتوقعة في تحيته، وهزت رأسها هامة:

"لا، طبعا لا."

فضغط على أصابعه بصبر فارغ. وأشار الى صندوق مقلوب، قائلا:

"اجلسي، أريد أن أتحدث معك، وأضاف:

"الى أي درجة ترغبين في العثور على طبيب الأعشاب، هل الى الدرجة التي تجعلك تنفذين كل ما يطلب منك دون سؤال، وبدرجة كافية لأن تعدي بتنفيذ كل التعليمات التي أصدرها اليك عند الضرورة لا تجيبي عن السؤال الأخير دون تفكير."

وأضاف بحدة، بعد أن لاحظ أنها فتحت فمها لتجيب بموافقة سريعة:

"ينبغي أن أتأكد من انك فهمت أهمية طلبي حتى قبل أن أفكر في أن آخذك الى قرية الجواهاربيوز."

واعترتها الدهشة. وتصورت أن أذنها خدعتها، فسألته ببطء:

"تقصد انك ستصحبني الى القرية؟"

"افكر في ذلك، اذا استطعت أن تعديني بأنك لن تتجولي بعيدا عني ولو لحظة واحدة خلال الرحلة. ثم استطرد مؤكدا: وأن تنفذي بدقة كل ما أقوله لك دون سؤال أو تردد،

منذ اللحظة التي نغادر فيها هذا المعسكر حتى نعود اليه.
عانيت كثيرا من حماقتك، ومحاولاتك لاقناعي بأنك جديرة بالسير وحيدة في هذه المناطق وبما أنني سأحتاج الى البحث عن الاثر في كل خطوة، اذا كنا نريد أن نصل سالمين الى القرية، فيجب أن أتأكد من أنك لن تصارعي غوريللا، أو تشتبكي مع فهد وراء ظهري، اذا أدرته لك.»

اندفعت دماء الغضب تصبغ وجهها، واشتعلت عيناها بالثورة فقد أغضبتها كلماته الساخرة، وأوشكت أن ترفض العرض الذي يقدمه اليها، لكنها استردت توازنها وأدركت أنه يمنحها الفرصة لتسير في الطريق الذي بدأه والدها وعليها ألا تترك شيئا يعوق بينها وبين التعلق بهذه الفرصة.

سألته:

«لماذا غيرت رأيك؟ بالامس رفضت أن تسمح لاحد من الرجال بأن يرافقني في هذه المهمة، خوفا من الاخطار الرهيبة، والآن تعرض أن تذهب أنت معي، فهل تبددت هذه المخاطر؟»

«بل ما زالت موجودة ولكن اذا ذهبنا وحدنا فان الخطر سيكون أقل كثيرا مما لو ذهبنا في مجموعة. انني أعرف افراد هذه القبيلة، وهم أيضا يعرفونني. ولن يحدث لك أي ضرر مادمت معي.»

ثم انتصب واقفا وقال آمرا:

«اذا كنت ترغبين في تنفيذ كل ما عرضته عليك، فينبغي أن تكوني مستعدة في خلال عشر دقائق. خذي معك كل ما ترينه ضروريا لاحتياجاتك. أعددت الأشياء الضرورية التي سنحتاج اليها في هذه الرحلة.»

«عشر دقائق؟ وماذا عن الباقين اية افكار ستراودهم حين يعلمون اننا رحلنا؟»

"ناقشت هذه الخطة فعلا مع فيلكس وجوزيف روجرز انني لا أريد أية مناقشات، لا من صديقك برانستون، ولا من انيز - وكلاهما يرغب في الذهاب معنا وقد أصدرت أوامري الى فيلكس ليشرح لهما كل شيء حين يعودان."

واصبح صوته هامسا وهو يقول: "اطمئني يا آنسة لن تفارقي برانستون لمدة طويلة. أتوقع أن نعود مساء غد على ابعد تقدير."

وأسرعت تينا والانفعال يطغي عليها تملأ جيوبها بما تصورت أنه ضروري لها. ولم تمض سوى خمس دقائق حتى كانت تضرب الأرض بقدمها أمامه في وقفة الاستعداد، منتظرة أوامره وبدا عليه الرضى، واستدار مشيرا الى قارب صغير في النهر، قائلا:

"هذا القارب سيكون مفيدا لنا في رحلتنا مادمنا نسير في النهر، فهو أسرع من السير على الأقدام هيا اصعدي اليه ولكن لا تضعي أصابعك في الماء."

واستدارت اليه بوجه شاحب وهمست بتردد:

"يا سيد رامون لا أستطيع أن أعبر لك عن أهمية هذه الفرصة بالنسبة الي. أشكرك من كل قلبي لانك حققت هذه الأمنية العزيزة علي."

وبرغم أنها لاحظت أن وجهه المتصلب أخذ يلين بعض الشيء، الا أن عينيه ضاقتا وهو يرد:

"لا تخدعي نفسك. انني لا أقوم بهذه الرحلة من أجلك. دوافعي شخصية بحتة، فأنا بدوري أريد أن أقدم خدمة للعلم."

★ ★ ★

حاولت تينا بكل قواها أن تخفي عنه ألمها العميق الذي شعرت به طوال رحلتهما، في النهر قاصدين قرية الجواهاربيوز. وتمنت لو أنها لم تبدأ الرحلة على الاطلاق. كان الجو المحيط بها لا يطاق، وهي مع شريك صامت، يتعمد تجاهلها. جاءت معه وفي يدها غصن زيتون تتمنى أن تقدمه له، لكنه تحطم عند هذه الفجوة العميقة التي أصبحت تفصل بينهما. وكان بتجاهله وجودها ينسف اية جسور يمكن أن تعبرها اليه، ونظرة واحدة منها الى وجهه المتجهم أقنعتها بأن اية محاولة منها لتفسير ما حدث لن تقابل الا بالرفض او عدم التصديق.

وشد انتباهها انحراف القارب في اتجاه واحدة من القنوات المائية العديدة التي تتفرع من النهر، ولم يحاول رامون تقديم أي تفسير لها، وايقنت أنهما يتجهان الى قلب المنطقة التي لم تذكرها خريطة من قبل والتي تسكنها قبيلة طبيب الأعشاب. واستمر القارب يسير في المجري المائي طوال ساعات عديدة وبدأ التوتر يصيب تينا بالخوف. ولم يكن هناك ما يخفف توترها، فلم يبد رامون أي استعداد أو رغبة في الحديث معها، بينما هو سائر بثبات الى أعماق الاعماق واستغرقت في أفكارها. تصورت أن وراء كل كتلة من الاشجار الكثيفة يختفي وحش كاسر، وأن على كل فرع من فروع الاشجار مجموعة من الحشرات القاتلة تنتظر لتنقض عليها. وأن كل غصن رقيق ليس الا أنبوبة رقيقة ستنطلق منها السهام السامة، ومع أنها لم تر في الحقيقة غير هذه الفراشات الرقيقة المسالمة والطيور ذات الألوان الرائعة،

الا أنها كانت تشعر بشعور غريب جعلها متأكدة من أن هناك عيونا متلصصة، تراقبهما من خلال الأغصان المتشابكة على طول الطريق.

وفجأة قاد رامون القارب الصغير الى شاطىء النهر، ومد يده اليها ليساعدها على الانتقال الى الشاطىء وارتعشت يدها وهي تلامس يده، وقالت:

"ما أجمل هذه الأدغال أنظر..."

وأشارت الى مجموعة رائعة من زهور الأوركيد بألوانها التي في لون اللهب، وقد ظهر جمالها واضحا ازاء هذه الخلفية من الأغصان القاتمة الخضرة.

"أليست في غاية الروعة؟"

وتابعت بأصابعها طائرا متعدد الألوان يحلق في الفضاء، مستطردة:

"وهذا لكم يبدو جميلا الى درجة لا تصدق."

وأطلقت زفرة ارتياح، وهي ترى ظل ابتسامة يتلاعب على شفتيه. لقد نجحت في شد انتباهه. ولكن عينيه كانتا شديدتي الخطر، يجب أن تأخذ منهما الحذر. وعندما استطاع أن يثبت القارب في أرض ثابتة، استدار اليها قائلا:

"يا آنسة اتبعيني كالظل، سيري فوق آثار خطواتي ومهما حدث لا تحاولي النظر وراءك، هل تفهمين؟"

ابتلعت خوفها، وأومأت برأسها مؤكدة موافقتها دون أن تنطق بكلمة، بينما استدار هو الى طريقه، وبدأ يخترق الادغال. وأدارت تينا حولها نظرة ودعت بها هذا الجمال الخيالي، وأسرعت خلفه بأسرع ما يمكنها، وهي متأكدة من أنه خليق بأن يتركها وحيدة لينقذ نفسه ان هي خالفت أوامره. وفي لحظة كانت تحتمي بظهره العريض

سائرة وراءه.

ونظرت خلفها، وتعجبت: إلى متى يمكنها الاستمرار؟ بالتأكيد كان الشيء الذي يدفعها الى مواصلة الرحلة هو اقتناعها بأن رامون فيغاس كان يدفعها الى أقصى التعب ليراها وهي تستسلم، لكنها خيبت أمله فضغطت على أسنانها، وواصلت معركتها بعد أن عرفت أنه لن يحاول أن يسمح لنفسه بالتفكير في ضعف قدراتها لكونها امرأة. العناد وحده هو الذي دفعها للسير في هذا العالم المملوء بالاشجار والادغال التي لا تنتهي وهكذا عبرت البرك والمستنقعات، وتسلقت التلال، ومرت فوق قنوات.. بل انها واجهت ما هو أقسى: هذا البعوض الجائع الذي دفعته شراهته اليها وحدها وقد سارت على أرض ناعمة أحيانا، وشائكة أحيانا أخرى، بل مليئة بالأشواك لدرجة أن رامون كان يضطر الى أن يمهد لنفسه طريقا بعصاه. وكانت الأغصان الكثيفة تضرب وجهها وكم لعنت هذه الخفافيش الطائرة التي تنطلق فجأة صارخة وهي تحوم وسط الغابات كالارواح الهائمة.

وكانت على وشك السقوط والانهيار، عندما التفت وراءه فجأة فتوقف وهو ينظر في وجهها الغارق في العرق، وقال ساخرا وبلهجة مرحة كأنه يتمتع بعذابها:

"يا آنسة، هل أنت على استعداد لتناول الطعام الآن، أم تستطيعين السير الى مسافة أبعد؟"

"أترك لك اتخاذ القرار، انني أرغب في الاستمرار اذا كانت هذه هي رغبتك."

ولمعت في عينيه نظرة اعجاب اخفاها بسرعة.

"سنستريح قليلا، ثم نتناول الطعام."

وشعرت براحة لا متناهية. وكأنه أراد أن يعوضها

عن قسوته في معاملتها فأضاف ببساطة:
"نحن على بعد ساعة واحدة من القرية. انتهينا من أصعب مرحلة من الرحلة."

كانت الوجبة مؤلفة من البسكويت والسردين والبلح الجاف، قدمه من حقيبته، فتناولته بشهية وأخذت تأكل بلهفة، وهي لا تشعر أنه يراقب كل حركة من أصابعها الصغيرة، وطريقتها التي تشبه طريقة الأطفال. وعندما انتهت تمددت على الارض، وأطلقت زفرة عميقة، وارتفع حاجباه من الدهشة وفجأة ودون أن تشعر، فتحت عينا واحدة كسولة لتبحث عنه، وكانت صورته هي آخر شيء تراه قبل أن تستسلم الى النوم.

لكنها استيقظت فجأة عندما شعرت بقطرة مياه قوية تسقط على وجهها، وطار النوم من عينيها عندما شق شعاع البرق هذه السحب الكثيفة وهز الرعد الأرض تحتها. وفي رعب بحثت حولها عن رامون فاذا هو يعيد ربط الحقيبة. استدار اليها عندما شعر بحركتها، وقال لها مطمئنا:
"لا تخافي، ستكون العاصفة شديدة ولكنها ستنتهي بسرعة، هيا.."

أطاعته، وتبعته في الحال، ولكن بعد فترة وجدت نفسها عمياء تماما، فقد فتحت السماء أبوابها، وسقطت عليها كتلة من المياه منعت الرؤية وحاولت أن تفتح عينيها، ووضعت يديها عليهما محاولة أن تزيح كتل المياه التي تمنع عنها الرؤية. وشعرت بالجنون وهي تفكر في أن رامون يسير دون أن يلقي نظرة اليها تاركا اياها وحيدة ولم تستطع أن تمنع صرخة هائلة من الانطلاق ولم تر شيئا. ولكنها أحست بشيء غريب يلتف على ذراعها: هل هو ثعبان؟

وانقطعت صرختها الثانية عندما سمعت صوت رامون

يعلو على صوت الهدير الذي يصدره المطر:
"ماذا حدث هل أصبت؟"

ورن السؤال كالصرخة في أذنها، فأعاد اليها الوعي. وأدركت أن يده هي التي تلتف على ذراعها وليست أفعى سامة من ثعابين الغابات فأجابته:
"لقد تعثرت، وأصيب كاحلي."

وتراجعت الى الوراء عندما لاحظت أنه ينحني ليفحص قدمها:
"كان الألم وقتيا، أستطيع أن أسير الآن."

ونظر الى وجهها القلق، وكان المطر ينحدر من رأسه الى وجهه، واستدارت بسرعة لتبتعد عن مواجهته بقلب كسير، وتساءلت: هل خانتها أعصابها وفضحت سرها؟ أما هو فاكتفى بأن قال في حزم:
"حسنا هيا بنا!"

وكما بدأ المطر بسرعة، انقطع فجأة. ولاحظت تينا للمرة الأولى في حياتها كيف تكون الأدغال بعد المطر. الخضرة الناضجة الرائعة تكسو كل ما حولها، وكادت تصرخ وهي تلاحظ عودة المزروعات للحياة بعد أن كانت تبدو ميتة منذ لحظات، ولكن كان عليها أن تتناسى هذا الشعور وتسير صامتة وراء رامون. ومع انقطاع المطر خفت الحرارة التي كانت تجتاح الغابة، وحل محلها نسيم بارد رطب، وكأنه سحر مس روحها واعاد اليها الحيوية.

كان رامون يركز اهتمامه على الطريق الذي يسلكان. ولاحظت تينا انه يسير بحرص شديد في الادغال، يفحص بسرعة كل شجرة يمران بها، ويتوقف بين لحظة وأخرى ليختبر الارض قبل أن يقرر أي طريق يسلكان فيه،

وانشغل تماما في اختبار كل شيء حوله بدقة، وعرفت تينا أنه يجب عليها ألا تقطع عليه تركيزه.

وبعد نصف ساعة من الصمت المركز، توقف وأخذ نفسا عميقا من الهواء معبرا عن الرضى ونظرت تينا الى جوارها لتعرف السبب. وشعرت بالقلق عندما رأت ممرا مطروقا ممتدا الى الامام وسط الارض. لقد أوشكوا على الوصول.

وحملقت فيه بشدة، عندما لاحظت انه يرسل رسالة بلغة ما، في اتجاه مجموعة من الأحراش المتشابكة المحيطة بهما. ثم ارتعشت خوفا عندما ظهر أربعة من الرجال، أكثر وحشية من أي أشخاص رأتهم في حياتها، وأطلقت صرخة خافتة وأسرعت تحتمي برامون، الذي همس:

"لا شيء يدعو للقلق كانوا يستطيعون ايذاءنا منذ ساعات طويلة مضت لو أرادوا. احتفظي بهدوئك، واياك أن تشعريهم بانك تخافين منهم."

ساعات مضت ماذا يقصد؟ هل كانوا يتعقبونهما منذ اللحظة التي غادرا فيها القارب. وربما قبل ذلك؟ كانت حاستها صادقة عندما شعرت بأن هناك عيونا تتلصص عليهما، وارتعشت من الخوف وهم يقتربون ولاحظت ان كل شيء غريب فيهم: شعرهم المجعد الكثيف، مظهرهم القوي، أسنانهم القوية التي تبرز من بين شفاههم وترسم على وجوههم شكل الانتصار الخبيث. وكان مما أرسل الرعب الى جسدها المرتعش طريقتهم في المشي التي تشبه القفز وهم يقتربون، ومظهرهم البدائي الذي تؤكده هذه الحلى التي يرتدونها والمصنوعة من عظام الموتى حول أجسادهم العارية والتي تصنع أصواتها عندما يصطدم بعضها بالبعض الآخر صدى يزيد تينا شعورا بالفزع وأخيرا هذه الاصوات التي يصدرونها

والتي يتفاهمون بها، والتي ليس لها أي معنى بالنسبة اليها.

لكن هل كانت هذه اللغة غريبة حقا؟ انتبهت عندما سمعت شيئا مألوفا صادرا عنهم فنظرت الى رامون، ولدهشتها الشديدة رأته يبتسم اذن فكل شيء على ما يرام. أما الكلمات المألوفة التي سمعتهم ينطقون بها، فلم تكن سوى ترديد لكلمة "كارامورو". لقد كان المتوحشون يحيون رامون بلقبه.

واستندت بجسدها المرتعش الى شجرة، وراقبت هذا الاستقبال الحار. كان رامون يربت على ظهورهم، ويتبادل معهم الكلام بلغتهم الغريبة. كان شيئا بعيدا تماما عن الحياة العادية التي تعرفها، وتعلقت بالشجرة ودموع الضحكات تملأ عينيها وتنحدر على وجنتيها. وشعرت فجأ بلطمة على وجهها أعادتها فورا الى وعيها. وحملقت في وجه رامون الذي كان يقف في مواجهتها، ويده مرفوعة استعدادا لأن يلطمها مرة أخرى.. وفرت الدماء من جسمها، حتى أنها شعرت بصدمة عندما حاولت أن تتكلم فلم يصدر منها صوت مفهوم. كانت عيناها فقط تعبران عما شعرت به نتيجة لتصرفه. ثم بعد تردد قالت:

"كيف تجرؤ على ذلك؟"

ورد عليها بأن هزها هزة جعلت الخوف الذي أصابها يزول كله تماما ويحل محله غضب جامح ورفعت يدها لتضرب بقبضتها هذا الصدر العريض الصخري لكن يده امتدت لتقبض على معصمها في قوة جعلتها تتوسل اليه:

"أرجوك. أرجوك انك تؤلمني."

"اذن توقفي عن هذه الافعال الصبيانية الحمقاء. ستدمرين كل ما نفعل. هؤلاء الناس سيكونون بمثابة المضيفين بالنسبة الينا، وهم ينتظرون منك احتراما، مماثلا تماما

للاحترام الذي تقدمينه لابناء قومك فارجوك ان تذكري هذا٠"

"أنا لست امرأة من أهل هذا البلد، وأنت لست رجلي٠"

"من أجل مصلحتك ستكونين امرأتي، وسأكون رجلك، مادمنا في هذه المنطقة٠"

ودفعها الى الأمام، وقال:

"اذا كنت مستعدة، يجب أن نتقدم للبحث عمن أتينا من أجله عن طبيب الأعشاب!"

وكان الوطنيون الأربعة قد اختفوا وسار رامون في طريقه دون تردد وتبعته تينا٠ سارا مسافة بسيطة قبل أن تنفرج الادغال فجأة عن ساحة واسعة جدا، في واجهتها كوخان كبيران من القش، وعلى الجانبين صفوف من الاكواخ الصغيرة٠ وكان من الواضح أن القرية كانت في انتظارهم، فقد خرج كل من فيها من الرجال والنساء والاطفال وأسرعوا اليهم وهم يهتفون:

"كارامورو كارامورو٠"

والتصقت تينا برامون وهم يتقدمون ليحيطوا بهما لكن لفرط دهشتها توقفوا على بعد خطوات قليلة، ثم ركضوا وهم ينظرون اليها، وضغطت بيدها على ذراع رامون وهي تسأل:

"ماذا حدث لماذا يحملقون في هكذا؟"

وكانت اجابته الوحيدة زمجرة زادت من رعبها٠ وظل كل شيء متوقفا لمدة دقائق قبل أن يتقدم من خلال الجموع الراكعة أحد الشيوخ وقد بدا من مظهره وملابسه أنه رجل مهم فقال لها رامون: انه رئيس القبيلة٠

وبقيت تينا في مكانها مرتعبة من هذه العيون المحدقة فيها وبعد أن انتهى رامون من حديثه مع الرئيس، استدار عائدا اليها وقال:

"آنسة دونيللي، يبدو أنهم اختاروك امرأة لي، سواء رضيت أم لا٠"

وردا على نظرتها التي عبرت فيها عن عدم فهمها لمعنى كلامه، قال ساخرا:

"لون شعرك هو الذي جعلهم يتخذون هذا القرار، فقد ربطوا بيني وبينك بسبب لون الشعر٠ ان مفهومهم بسيط، وقد سبق أن اختاروني وأطلقوا على اسم كارامورو (رجل النار) لانني أول رجل رأوه يطلق النار من بندقيته٠"

"ولكن، ماذا بالنسبة الي؟"

فأمسك بخصلة من شعرها، أغرق فيها أصابعه وقال:

"أمر بسيط جدا أنا رجل النار٠ وأنت، بشعرك الاصفر الناري، امرأتي٠ اذن أنت امرأة من نار٠"

"أمر مضحك بالفعل٠"

"لا شيء مضحك في ذلك٠ هؤلاء الناس يعبدون النار٠ ومن الآن لن تخافي من الجواهاربيوز اطلاقا يا آنسة دونيللي، لانك "مقدسة" بالنسبة اليهم٠"

كانت على وشك البكاء والهنود ينظرون اليها٠ كل شيء حولها كان يدفعها الى الانهيار العصبي٠ وتفكيرها في أنها ستشاطرهم هذا الطعام الذي يعدونه كان يبعث في نفسها الاشمئزاز ونظرت حولها بحثا عن مهرب ولم تتصور أنها تستطيع أن تصارح رامون بما في نفسها٠ لقد طالبها بأن تعاملهم بأدب واحترام٠

الحقيقة أن رائحة الشواء على النيران كانت شهية، ورأت تينا واحدة من نساء القبيلة تقف تحت الشواء وتفتح يديها لتتساقط فيها الدهون ثم تدلك بها جسمها العاري ويبدو أنها كانت عادة مألوفة عندهم، فقد هرعت النساء لتجمعن

كل نقطة دهن تتساقط من الشواء، ثم يدلكن أجسامهن بطريقة فنية يحسدهن عليها أشهر الفنانين من محترفي فن التجميل.

ولاحظت أن اعداد الطعام انتهى، ووقفت امرأة عجوز تقطع الثور الكبير المشوي بيديها، وتقدم قطعة الى كل امرأة من الواقفات، وتصورت تينا أنهن سيقدمنها الى عائلاتهم، لكن المرأة الاولى تقدمت بقطعة الشواء الى رئيس القبيلة وضيوفه. وشعرت تينا بالغثيان. لن تستطيع أن تذوق هذا الطعام اطلاقا، وانحنى الرئيس على زوجته الضاحكة ليتسلم منها قطعة اللحم الضخمة، وانتهزت تينا الفرصة فألقت نظرة سريعة من وراء ظهره الى رامون:

"أرجوك، لن أستطيع أن اتذوق الطعام."

"هل ستسمحين للغثيان بأن يفسد فرصتك في الوصول الى طبيب الأعشاب؟ ان رفضك الطعام سوف يلحق بزعيم القبيلة اهانة شديدة. لذلك اقترح عليك أن تتغلبي على مشاعرك وتأكلي كل ما يقدم اليك."

وظهر تعبير ضاحك في عينيه ثم استطرد:

"ان الطعام الذي معي لا يكاد يكفي لرحلة العودة، فاذا لم تأكلي الآن فسوف تموتين جوعا قبل موعد العشاء."

وعندما انتهى الطعام كان الظلام قد حل. وبدأ الرقص حول نيران المعسكر، مصحوبا بموسيقى غير منسجمة تصدر من طبول جوفاء مصنوعة من جذوع الأشجار، كان العازفون يدقون عليها بعنف. ومعها غناء من شباب القرية الذين جلسوا في نصف دائرة حول نيران المعسكر مع الرئيس وفيفاس وتينا، الذين أكملوا الدائرة، وفوقهم قمر كبير ساطع يسبح في السماء، ويرسل ضوءا كافيا فوق المكان، وتثاءبت تينا. كان يوما مرهقا حافلا بالاحداث. وادركت بأنه يجب الاكتفاء بذلك، بالنسبة اليها على الاقل. وحاولت أن تنظر الى

رامون لكنه كان غارقا في الحديث مع الرئيس، ولم يتنبه اليها حتى عندما سمعت سعلة عالية ذات معنى، كي تلفت اهتمامه وتحركت غير مرة، بأمل أن يلتفت اليها، لكن ساعة أخرى كاملة مرت قبل أن يقف الحاضرون استعدادا للتوجه الى أكواخهم.

اوصل رامون تينا الى كوخ بسيط ليس فيه اي سرير لينام الانسان عليه. كانت الارض مكسوة بخشب الخيزران. استدارت تينا نحو رامون وقالت:

"سعدت مساء يا رامون. أشكرك لاصطحابي الى هنا."

وزادها التعب عصبية فأردفت:

"انني متعبة، هل تتفضل بالخروج؟"

استدار على عقبيه، ناظرا اليها ومواجها غضبها ببرود:

"يبدو أن الامر ليس بهذه البساطة، ان هذا هو الكوخ الوحيد الموجود والصالح للنوم. واذا لم تكوني راغبة في مشاركة نساء القبيلة في كوخ واحد، فأخشى أن أقول لك انه ليس أمامك خيار سوى مشاركتي في الكوخ."

"أشاركك؟ لكن هذا كوخي أنا.. أنت الذي يجب أن تبحث عن مأوى آخر."

فقال ساخرا:

"ان مضيفنا سيصاب بدهشة شديدة، ألا أشارك امرأتي كوخها وكما قلت لك أيضا ليس هناك كوخ آخر صالح للاستعمال."

هز كتفيه، وسار عبر الكوخ الى كومة من الحشائش الجافة، فحمل نصفها واتجه به الى ركن وضعه فيه وأخذ يرتبه ليصنع لنفسه فراشا، وهي تراقب غير مصدقة ثم قال:

"ها أنذا أعددت فراشي، وأعتقد انك اقتنعت الآن بأنني باق."

ورمقها بنظرة خبيثة، وهو يتكلم بسرعة لم تستطع معها أن تجد الرد المناسب بينما استطرد هو:

"لا أعتقد انك تعتبرين حقيقة أن النوم في كوخ واحد معي هو أمر مناف للتقاليد. أرفض أن أصدق أن خبيرة مثلك في الادغال تفكر مثل هذا التفكير وهي التي اعتادت النوم في الخلاء وسط الأدغال بين الرجال. ان لنا نحن الرحالة كما تعلمين قانوناً خاصاً للأخلاق، لا يهتم بما يفكر فيه ضيقو الافق من أهل المجتمع."

وفي اللحظة المناسبة، أدركت الفخ الذي ينصبه لها: انه يشك فيها ولكنه لا يستطيع الاتهام دون دليل. وكأنه اراد بسؤاله دفعها الى الاعتراف بأنها ليست خبيرة، ذلك أن مشاركة رجل في كوخ واحد هو أحد المآزق التي يقع فيها دائما المشاركون في مثل هذه الرحلات. كان ماكرا، لكنها كانت أيضا حسنة الحظ، فأدركت الخدعة في الوقت المناسب. ثم قررت أن تتجاهل الأمر، وتغير موضوع الحديث بعيدا عن هذا المأزق. انها حتى الآن لم تكن تتصور انه جاد في عزمه على البقاء معها، الا اذا قصد بذلك أن يكون نوعا من العقاب. وبعد فترة سألت:

"ما رأي رئيس القبيلة، هل ينوي أن يسمح لنا بمقابلة الطبيب غدا؟"

كانت متأكدة أنه خلال الصمت الذي أعقب سؤالها، راح ينظر اليها مدققا وهو يقدر تماما موقفها ويعرف كل المشاعر المضطربة التي تحاول أن تخفيها. كان يراها، ويتمتع بها، ومع ذلك فانه لم يضطرها الى العودة الى الحديث الذي تخلت عنه لكنه عندما أجاب على سؤالها، كانت لهجته تحمل سخرية عميقة:

"وعدني بأن يرسل أحد رجاله لاحضاره. كان توقيت حضورنا ممتازا، لأن الطبيب حاليا يجمع الاعشاب ليحضر الدواء لمعالجة الزعيم من هذا المرض. كل شيء على مايرام سيكون هنا بعد الفجر بقليل."

"هذه أخبار رائعة!"

تبددت السحابة من عيني تينا، بعد أن شعرت بأن النجاح أصبح على قاب قوسين أو أدنى. وزايلتها كل الآلام والمخاوف بعد أن أدركت أنها أصبحت قريبة من الهدف:

"في هذه الحال، أعتقد أننا نحتاج الى بعض النوم. فهل لك أن تذهب؟"

وسارت في اتجاه الباب، وكأنها مضيفة تقف لتنتظر من ضيفها أن يغادر الدار. لكنه بدلا من تلبية دعوتها، سار بهدوء الى فراشه، وتمدد عليه:

"لن أستطيع الجدال أكثر من ذلك، كان يومنا شاقا ومتعبا."

واشار الى القش الملقى في الجهة الأخرى من الكوخ، وقال:

"أنصحك بشدة أن تأخذي أكبر قسط من الراحة، فستكون رحلة العودة غدا أكثر مشقة من رحلة الحضور، اذا لم تستريحي!"

"كنت اظن انني في صحبة رجل مهذب."

ونهض من فراشه غاضباً وقال:

"هل كل واحد منا يبدو على حقيقته؟ أجيبي عن هذا السؤال."

وامتلأ قلبها رعبا من العنف الذي بدا على وجهه، وزاد خوفها وفاض، عندما همس:

"لست ادري لماذا تملكين القوة التي تثير غضبي دائما؟ منذ اللحظة الاولى التي قابلتك فيها وأنت تستمتعين

باستخدام قوتك ضدي. لقد وجهت الي غطرستك وأغضبتني، وأهنتني، بل انك حاولت اغرائي لمجرد مضايقة انيز."

واضطربت تينا لدرجة لم تسمح لها بالرد، لكن عينيها عكستا كل الخوف الذي شعرت به عندما سمعت كلمته بينما زمجر هو بقسوة:

"ان الامر يبدو رخيصا وقذرا، اذا اردنا وصفه لكنه مع ذلك يطابق مقتضى الحال. أليس كذلك يا آنسة؟"

ثم أطلق ضحكة خشنة، واتجه اليها مستطردا:

"ولكن ماذا لو أنني قررت ألا أترك الموضوع بلا نهاية يا آنسة؟"

وفي الحال أدركت قصده وكما يفعل الطفل الخائف، أسرعت تحاول الهرب لكنه كان يقف أمامها ويسد الطريق وارتعشت وهو يجذبها من كتفيها الى صدره العريض. وأرغمها على أن تنظر اليه. وقال:

"أنت تحفة فنية، هل تتصورين أنني سأسمح لك بالهرب مني مرتين؟"

وقاومته بشدة، لتبعده ولوت رأسها لتتجنبه، وقد ندت منها صرخة خافتة:

"لا. أرجوك لا."

لكنها كانت تعرف أنها تقاوم بلا أمل فقد قرر أن ينفذ انتقامه كاملا.

وفجأة، دفعها بعيدا عنه، وهو ينتظر رد فعلها. كانت عيناها الخضراوان تفيضان بالألم، لكنها لم تعلق، وارتفعت الدماء الى وجهه، وخفض ذراعيه الى جانبيه، وتراجع خطوتين الى الوراء، ولم تعد تراه في الظلام الكئيب. لكن صوته عكس غضبه، حين قال:

"تحتاجين الى الكثير لتتعلمي الاغراء يا آنسة ان جاذبيتك تشبه جاذبية الطفل الذي لم يستيقظ بعد."

وتحولت عنه بعيدا. أسرعت الى فراشها، واستلقت، تاركة لدموعها العنان فنظر اليها وتمتم:

"اصبح الموقف واضح بيننا الآن، أصبحت متأكدة أن مشاركتي لك في هذا الكوخ لا تنطوي على اي خطر. انني سعيد الآن لأن بعض التقدم تحقق."

ادارت تينا ظهرها لرامون محاولة ان تبحث عن مكان مريح لجسمها المرهق وكان صوت استهزائه وسخريته يرن في رأسها وظلت فترة محملقة في الظلام، تعاني من خشونة الفراش، وتفكر في غرابة الوضع الذي وجدت نفسها فيه. كان صوت تنفس رامون العالي يملأ الكوخ، وقد هدأ النوم من ثورته. لكنها ظلت تشعر بقسوة وحدتها ووطأة الشعور بالهجر الذي كانت تعاني منه في طفولتها وبدأت مخاوف الماضي تتسرب الى نفسها شيئا فشيئا، حتى بدأت دقات قلبها ترتفع بتأثير الخوف.

استغرقت في نوم سيطرت عليه الكوابيس التي كانت نسيتها: العنكبوت المعلق يحملق فيها وسمعت نفسها تصرخ خانقة لوالدها، تتوسل اليه أن يأخذها بعيدا عن الأدغال، يا المعجزة.. في هذه المرة، أتى والدها، أخذ يربت على رأسها وهي تتوسل اليه أن يسمح لها بالعودة الى المدرسة في انكلترا أو أي مكان أن يبعدها عن الأدغال، وسمعت صوته الحلو يطمئنها، وشعرت بيده تربت على جبينها، ثم انحسرت الاحلام القاسية، واستغرقت في نوم هادىء، وهي تشعر بشعور مريح، ووالدها يربت على خدها ثم ينحني ليضع قبلة على جبينها.

٧ – مع طبيب الأعشاب

بدا طبيب الاعشاب وكأنه من المعمرين، والندوب والتجاعيد التي تملأ وجهه تجعله أشبه ما يكون ببطل أسطوري لكنه كان سريع الحركة، نشيطاً كأنه لا يزال في ريعان الشباب..

ظلت تينا أكثر من نصف ساعة تنتظر نهاية الحديث بين الطبيب ورامون. وكان الوقت بعد شروق الشمس بقليل، وساحة القرية كلها خالية الا منهم هم الثلاثة، فقد استيقظت على صوت شخص يدعوهم الى لقاء الطبيب الذي ينتظرهم، والذي يرجوهم أن يذهبوا اليه قبل أن يعود الى عمله بأسرع ما يمكن.

ويبدو أن سير المحادثات لم يكن مرضيا، فقد كان الطبيب يهز رأسه بالرفض مرات ومرات، ورامون يواصل محاولاته، ولكن العجوز كان يواصل رفضه وهو ينظر الى تينا بين لحظة وأخرى، وكأنها هي العقبة الرئيسية التي تدعوه الى الرفض. أخيرا هز كتفيه يائسا، وعاد اليها وهي تنتظره بمزيد من القلق.

"يبدو ان الأمر مستحيل.."

قال لها ذلك بلهجة ناعمة رقيقة، جعلتها تنتفض

من المفاجأة وتراجعت الى الوراء وهي لا تتصور هذا العطف المفاجىء. وكانت كل نبضة في عروقها تدعوها الى الاحتراس. فأخشى ما تخشاه أن يصيبها الضعف، وتأسرها لهجته الحانية فتسلبها المقاومة، وتصبح لعبة بين يديه.

"مستحيل لماذا؟ هل هناك سبب وجيه لذلك؟"

وتجنبت النظر الى عينيه، فان لمحة واحدة كانت كافية لأن تدرك أن القسوة التي كانت تملأ عينيه الزرقاوين ذهبت الى الأبد وهي لن تتحمل أبدا هذا التأثير الذي ينبع من تعاطفه الجديد والذي تعرف جيدا تأثيره عليها.

أجابها ببطء:

"ليس للطبيب أي اعتراض على وجودي معه أثناء تحضيره هذا المرهم الطبي، لكن اعتراضه ينصب على وجودك انت، فهو يعتقد أن حضور أية امرأة عملية الاعداد وتركيب الدواء ستفسده وتجعله عديم الفائدة. ان هؤلاء القوم يعتبرون عقيدتهم وما يؤمنون به أهم شيء في حياتهم وفي عقيدته أن تكوين الدواء نصف النجاح، والنصف الآخر يعتمد على هذه الطقوس التي يقومون بها. فهو يعتقد أنه اذا كانت النباتات التي يستعملها موجودة ودرجة حرارة النيران هي المطلوبة والأدوات التي يستعملها تماما كما يريد، فان ذلك كله لا يساوي شيئا اذا لم يتبع القواعد الموروثة التي انتقلت اليه عبر قرون طويلة، قبل أن يبدأ في عمله، فهو دائما يتأكد من أن هناك أشخاصا معينين يجب ان يكونوا لحظة اعداد الدواء، فهل تقدرين الآن الموقف الذي نواجهه؟"

ونظر اليها صامتا، بينما انعكست خيبة الأمل المريرة التي شعرت بها على نظراتها. كانت تتمنى أن تعود الى عمتها منتصرة، وهي تحمل هذا الدواء الجديد، لتعلن لها

انتصارها ونجاحها. كان ذلك نوعا من الترضية الذاتية، ومن إسعاد عمتها التي خاب أملها في الرحلة، لكن، اذا كان ما يقوله رامون حقيقيا، فلن يكون هناك سبيل للتغلب على هذه العقبة. وتملكها اليأس، والشعور بالفشل، واهتز صوتها، وكأنها على وشك البكاء وهي تسأله:

"هل هذا هو رأيه النهائي والاخير؟ أليس هناك سبيل الى اقناعه؟"

واخترقتها عيناه كأنه يقرأ أسرارها كل سر، وكل أمل، وكل خوف ينتابها، عرفه بقوة بصيرته، فهز رأسه، وتردد قليلا، ثم انثنى عائدا الى الطبيب.

وبدا الحديث مع الطبيب هذه المرة بعنف، وتصميم وقوة، حتى أن تينا بدأت تشعر بالعطف على الطبيب المسكين الذي وقف حائرا. وعكس ما توقعت، بدا وكأن الرجل غير متأكد تماما من قراره، فقد نجحت كلمات رامون العنيفة في تحقيق التأثير المطلوب، وكم كانت دهشة تينا وهي ترى رامون يرفع في يده بندقيته ملوحاً بها امام وجه الطبيب الشاحب. وبعد الجدال العنيف بدأ الطبيب يتراجع، ثم استدار على عقبيه، وأسرع الى الكوخ العام الكبير الذي بدأت تظهر فيه بعض مظاهر العمل.

وعاد رامون الى تينا مبتسما، ليشرح لها ما يشبع فضولها. قال:

"هددته بالقوة التي تحملها العصا النارية التي أملكها، لكني أكدت له في الوقت نفسه أنها سوف تسبغ عليه حمايتها ان هو نفذ كل ما طلبناه منه. وقد رفض في أول الأمر، وأصر على أن زوجته التي دخلت معمل الولادة اليوم، سيصيبها مكروه هي أو طفلها الذي تنتظره اذا هو عصى أوامر أجداده.

وقد اكدت له أنني أعده بعدم حدوث أي ضرر للطفل أو لزوجته، ولكن لأن المخاطرة ستكون كبيرة، فقد اقترحت عليه أن يذهب الى رئيس القبيلة لاستشارته فيما اذا كانت قوتي هي الأقوى أم قوة أجداده. فاذا وقف الرئيس في صفنا فستنالين ما تريدين، كل ما أرجوه، اذا أطاع أوامرنا، أن يأتي طفله في ولادة سهلة. والا...»

لكن تينا رفضت أن تضع أي احتمال آخر في اعتبارها، فالحصول على الدواء الآن هو كل ما تحلم به وتتمنى الحصول عليه وهو يعني بالنسبة اليها أشياء كثيرة. فاذا نجحت، فسيكون جزاء عادلا على كل هذه المعاناة في هذه الرحلة. وسيهون بالنسبة اليها كل ما حدث لها في الأسابيع الأليمة التي عاشتها. ستصبح آلامها لا تساوي شيئا الى جوار هذا الانتصار، ولهذا قالت باصرار:

«هذه أخبار رائعة، ولكن متى نعرف قرار الرئيس؟»

مرة أخرى، زمجر رامون مترددا ثم قال لها:

«هناك شيء آخر يجب أن تعرفيه: ان المسألة ليست بالبساطة التي تتصورينها، فاذا كنت تريدين الحصول على الدواء، فيجب أن تعرفي أن هذا لن يحدث بالسرعة التي تتوقعينها وانما سيكون علينا أن ننتظر ساعات وساعات وهو يقوم بطقوسه الدينية الطويلة، قبل أن يبدأ تحضير دوائه، ولسوء الحظ فان هذه الاستعدادات لن تقل عن ثلاثة أيام.»

وساد الصمت وتينا تحاول استيعاب هذه المعاني التي تحتوي عليها كلماته: ثلاثة أيام، كيف تستطيع أن تتحمل الحياة ثلاثة أيام ولياليها بالقرب من رجل تحبه، بينما هو يعاملها بكل القسوة التي اشتهر بها الفاتحون من فرسان الأسبان؟ هل تستطيع أن تقاوم هذه الأحاسيس التي

تعصف بها، وأن تتظاهر بالقوة والكراهية، أم أنه يستطيع أن يكتشف ضعفها؟ وكيف يمكنها أن تتحمل العذاب الذي ستعانيه لو أنه استمر في رقته المفاجئة، والنظرات الساحرة التي سوف تسلبها دون شك آخر قطرة من كرامتها؟ ولكن، هل تضحي بالهدف الذي تحملت كل ما تحملت من أجله بعد أن أصبح قريبا؟ هل تيأس والحلم اوشك ان يتحقق؟

رفعت كتفيها، وقالت:

«انني راغبة في البقاء، اذا وافقت أنت.»

بعد ساعة كاملة، رضخ الطبيب لنصيحة رئيسه، وقادهم وراءه الى قلب الأدغال، واختار بقعة ليبدأ فيها عمله، قريبة من القرية، حتى يسهل وصول رسول ينقل اليه أخبار طفله الذي ينتظره من يوم الى يوم، وأخبار زوجته التي تنتظر المولود. وشعرت تينا بالقلق، فقد كان يرمقها طوال الرحلة بين لحظة وأخرى بنظرات عدائية. وفكرت في ما يمكن ان يحدث لو وقع مكروه للطفل أو لأمه. وحاولت أن تمحو أية صورة للتوقعات المخيفة، وركزت نظراتها على البندقية التي حرص رامون على أن يحملها معه. وشعرت بالاطمئنان وهي تسير في حماها.

كانا يحملان معهما من الطعام ما يكفيهما ليومين أو ثلاثة، وبما أنهما لم يكونا قادرين على العودة الى القرية يوميا، فقد حمل رامون معه في حقيبته الأسرة المعلقة، والشباك التي تحميهم من الحشرات.. وبعد أن سار ثلاثتهم في الغابة مدة ساعة وصلوا الى ساحة صغيرة. كان من الواضح أنها هي المعمل الذي اختاره الطبيب، فقد كان فيها بعض الأدوات والبقايا التي يستعملها العجوز، وكوخ صغير ينام فيه اختفى في داخله بمجرد وصولهم وظل هناك مدة طويلة من الوقت،

كانت كافية لاعداد أسرتهم المعلقة التي بقيت تنتظر من يشغلها ، بينما ظل الطبيب في داخل كوخه في انتظار الظلام.

وكاد صبر تينا يفرغ. كانت قلقة تريد البدء في الحال. ويبدو أن الطبيب كان ما يزال معارضا لوجودها ، ولكن أخيرا ، أمسك ورقة شجر في يده، وبسطها ، ووضعها أمامها ، وأدركت أنه يريد منها أن تجمع من الغابة، أكبر عدد ممكن منها.

وابتسمت لكنه واجهها بوجه متجهم غاضب وبكلمات لم تفهمها ، ونظرت الى رامون تطلب منه تفسير ما حدث، فقال لها مهدئا:

"لا تدعي الرجل ينجح في استفزازك يجب أن تقدري مشاعره، فهو يعتقد أنه أول رجل في قبيلته يضطر الى خيانة تقاليد أجداده ويفشي أسرارهم، وهذا يجلب له العار مدى الحياة، وهو يعتقد اعتقادا جازما الآن أنه سيصاب بمحنة كبيرة، عقابا له على ضعفه فينبغي اذن أن نعذره، ونتمنى ألا تخونه شجاعته."

وسارا في الغابة المحيطة بالساحة صامتين، يجمعان الأوراق التي طلبها الطبيب. وكانت تينا سعيدة بهذا الصمت الذي لازمهم، وكانت أية حركة صغيرة بين الأشجار، كفيلة بدفعها لأن تقفز مندفعة الى جواره، ولكنه برغم ملاحظته لما يبدر منها، فأنه لم يعلق على ذلك. وظلا يجمعان الاشجار حتى غابت الشمس، ثم قفلا راجعين الى الساحة، حيث كان الطبيب يجلس ساكنا كالتمثال، محملقا بتركيز شديد في كومة من الأعشاب، ورفع رامون يده داعيا تينا الى الصمت، ثم قادها في سكون الى الجانب الآخر من الساحة حيث أقام الأسرة المعلقة. وقال لها محذرا:

"يجب ألا نقطع عليه تركيزه."

وبعد أن وضع أوراق الشجر على الأرض اتجه الى

تينا وقال:

"لماذا لا تستريحين، سأحضر لك طعامك!؟"

"شكرا، أفضل أن أحضره بنفسي. اذا كان ذلك لا يضايقك."

اختفت النظرات الرقيقة من عينيه، وعاد الى وجهه الجمود ثم قال:

"حسنا، بما أنك ترفضين أن نكون صديقين، فلا شيء آخر يمكن أن أفعله."

وتهالك قربها جالسا على جذع شجرة، ومد لها يده ببعض البلح الجاف، قائلا:

"آسف، ليس أمامنا خيار، ولكني غدا سأجوب الغابة بحثا عن طعام لنا وسأجد فاكهة، وجوز الهند، وربما عثرت على عسل أيضا."

"أشكرك"

"نحن هنا المتحضران الوحيدان في هذه البقعة المهجورة وعلينا ان نقدم مثلا طيبا أمام هؤلاء المتوحشين الذين يستضيفوننا.. فنحاول أن نتناسى كل المشاحنات والحساسيات التي بيننا، على الأقل خلال اقامتنا هنا."

وقفزت واقفة، ودفعت يده بعيدا عنها ليتناثر البلح الجاف على الحشائش، وكان عليها أن تقول أي شيء لتخفي هذه المشاعر التي تجتاحها والتي تصرخ في أعماقها شوقا اليه.. وخرج صوتها غريبا وهي تقول:

"أنا لا أريد صداقتك، لا الآن، ولا غدا، ولا الى الأبد. الحقيقة أنه بعد ما حدث في الأمس فانني أتمنى ألا أراك مرة أخرى في حياتي. انني أعرف..."

اختلج صوتها وأكملت:

"انك تفتقد صديقتك الجذابة دونا انيز، ولكن لن يكون هذا سببا لأن تعاملني كبديلة لها."

"ولكن ألم تكن هذه فكرتك في الأصل؟"

واستعادت عيناه الزرقاوان نظراتهما الباردة العميقة، وعندما احمر وجهها، ضحك ضحكة خالية من المرح وكم كانت دهشتها اذ واصل قائلا:

"تعالي نعلن هدنة بيننا. يكفي هذه البقعة من الأرض وما فيها من مظاهر العداء والحروب والوحشية، هيا تعالي."

ومد يده اليها، قائلا:

"انني أعتذر اليك عن كل ما سببته لك من مضايقات تعالي نتصافح، ونتعاهد على اننا اذا لم نكن صديقين قادرين على أن نكون فعلى الأقل لنمتنع عن أن يضايق كل منا الآخر. أرجوك قولي أنك موافقة."

وارتفعت دماء الخجل الى وجنتيها، وضاعت في حيرة. أما هو فابتسم ومد يده الى آخرها فأحست كأنها مسحورة تماما. رفعت يدها ببطء حتى أصبحت في متناول يده، وارتعشت وهي تشعر بقبضته القوية بينما همس هو في رقة:

"تينا، أشكرك على كرمك.. هل تسمحين بأن اسمع صوتك ينطق باسمي؟ ستعطيني أملا في أننا قد نصبح يوما صديقين."

في هذه اللحظة ضاعت كل شكوكها. وادركت أنه يطلب منها امراً بسيطا جدا، فهتفت:

"حسنا يا رامون."

نطقتها بسعادة، وخفة فرفع يدها الى شفتيه، وانتظر قليلا، قبل أن يلثمها ثم تنهد معبراً عن ارتياحه العميق. وأخذ يراقبها بعينيه نصف المغمضتين وهي تتناول طعامها..

ولم تعد تشعر بالجوع. اكتفت بما أكلت. لكن الفترة التي قضتها في مضغ الطعام كانت فرصة لأن تحاول أن تجمع أفكارها، وتسيطر على أعصابها، وتخرج من هذه الحالة السحرية التي جذبتها اليه، وأفقدتها وعيها واستطاعت أن تسيطر على مشاعرها بعض الشيء، بينما كان رامون بجسمه الضخم متمددا على الأرض وهو يدرك تماما كل العواطف التي تعتمل في صدرها.

واستغرقت في الاستماع الى أحاديثه المسلية المثيرة وهو ينتقل من موضوع الى آخر في سهولة وطلاقة: من الحديث عن جمال الأدغال ووحشيتها، الى الأماكن الغامضة والغريبة التي زارها، ثم الى هؤلاء الناس المتوحشين الذين يحاول جاهدا أن يساعدهم. وأدهشتها رغبته الملحة في مساعدة الناس وحساسيته الرقيقة، وروحه الشفافة، وتأكدت أن ذلك هو الوجه الآخر لهذا الرجل القاسي الصعب المراس، وأن هذه هي الشخصية المثالية لما يجب أن يكون عليه المكتشف الحقيقي. وتحدث عن منزله وأهله الذين يعيشون في الأراضي الخصبة التي تمتلىء بالخير، تحدث عن أشجار الموز وجوز الهند وقصب السكر وكل المزروعات الاستوائية، وعن البن الذي ينمو في بلاده، وقطعان الماشية التي تمرح على سفوح الجبال.. وهنا قاطعته:

"لماذا ترحل كثيراً برغم أنك سعيد في وطنك؟"

"ربما لانني اريد ان أمحو من تفكير هؤلاء المواطنين البسطاء الفكرة التي رسخت في أذهانهم عن وحشية الرجل الأبيض. فمن سوء الحظ أن أول من غزا أرضهم كانوا مجموعة من الباحثين عن المطاط، وقد عاملوهم بقسوة، ربما لخوفهم منهم، فلم يفرقوا بينهم اطلاقا وبين الحيوانات، ولم

يراعوا تقاليدهم ولا معتقداتهم. وقد أوفدتني الحكومة البرازيلية على رأس بعثة لاقامة علاقات مع هؤلاء البسطاء الطيبين، ولمحاولة تحريرهم من قسوة الجهل الذي يعيشون فيه، وحتى يأتي اليوم الذي يستطيعون فيه الحياة مثل سائر البشر، ويتعاملون معهم بالطريقة المتمدنة نفسها، تماما مثل ما حدث مع الهنود الحمر في اميركا الجنوبية.."

"رامون، أرجوك ان تستمر. أريد أن استمع الى المزيد."

وقفز جالسا بخفة ورشاقة وابتسم لها قائلا:

"ولكنني تحدثت عن نفسي ما فيه الكفاية. أريد أن أعرف عنك أنت الكثير، كل ما اعرفه انك انكليزية. انكليزية جدا. وانني في شوق لأن أعرف كل شيء عن كل ما يحيط بك: العالمة الشهيرة في علم النبات، العروس الثلجية، ذات القلب الوحشي."

"ليس هناك الكثير الذي يمكن أن تعرفه عني، فليس هناك ما يثير الفضول.. انني أقضي وقتي بين العمل في حدائق النبات في كيو، وأدرس خلال أوقات فراغي، وأعيش مع عمتي في لندن، وبين وقت وآخر نقيم بعض مآدب الغداء لاصدقائنا المقربين وهم غالبا من العلماء وأحيانا نخرج الى المسرح، أو نتناول العشاء في مكان عام. وبالمقارنة مع حياتك، فنحن نعيش حياة روتينية."

"ان هذا يدهشني!"

وكانت كلماته كرنين الانذار في أذنيها. عرفت الآن أنها في غمرة هذه الجلسة الشاعرية نسيت حذرها وتورطت في اعتراف لم تكن تود أبدا أن تكشفه. كان حديثه قد بعث الثقة في نفسها، فوجدت نفسها تتحدث بصدق وصراحة، واستطاعت بكل قوة أن تنبه نفسها الى أنها يجب أن

تكون حذرة فقالت مستدركة، وهي تقذف بأكذوبتها:

"طبعا هذه هي حياتي في الأيام التي أكون فيها في لندن، ولكن من حسن الحظ أن هذه الأوقات تكون قليلة عادة ولولا الرحلات التي أقوم بها وتغير من سير الحياة الروتينية هذه، لما استطعت أن أتحملها."

"آه. فهمت."

لكن صوته كان خاليا من أي تعبير، وشعرت بأنها خيبت أمله بطريقة لم تدركها، وحولت وجهه الى الجمود. ولم تستطع أن تدرك شيئا من نظراته، فقد أرخى أهدابه السوداء الطويلة، فلم تستطع أن تقرأ فيها شيئا. ثم استدار بعيدا عنها، حتى لم تعد ترى وجهه وفي صوت هادئ قال:

"ان الوقت متأخر، وقد حان موعد الرقاد، تصبحين على خير."

وأحنى رأسه واستدار بعيدا..

وغاص قلبها وهي تراه يعود الى قسوته، وعندما رأته يذهب، ضاع صوتها الذي أرادت أن ترد به على تحيته، ضاع تماما في الصمت الشامل الذي يحيط بالمكان.

٨ - الهدية

في الصباح التالي، كان من الواضح أن طبيب القبيلة قرر أن يتراجع عن وعوده. وهو لم يعلن ذلك صراحة، لكن تصرفاته كانت تدل بوضوح على نيته، فقد استمر في تجهيز معداته، وبعد أن جمع جذور النبات والأعشاب المطلوبة كلها، ووضعها فوق أوراق الشجر التي جمعها رامون وتينا في اليوم السابق، لم يبد أي رغبة في الاستمرار، وانما توقف تماما عن العمل، وجلس صامتا يحدق في اتجاه الأدغال، وكأنه ينتظر حدثا معينا ثم يعود ليرفع بصره نحو السماء التي بدأت الشمس تتوسطها، وتشتد حرارتها. ولم يحاول أن يهتم اطلاقا بكلمات رامون الحادة، ولا محاولاته لحثه على الاستمرار في العمل، بل تجاهله تماما، وظل ينتظر اشارة تدل على انه ليس مغضوباً عليه نتيجة تصرفاته.

بعد لحظات، سمعوا صوت خطوات فوق العشب الجاف تخترق الدغل القريب، المحيط بهم، ثم ظهر رجل يحمل رسالة الى الطبيب، واتجه اليه فورا. كان الرسول يلهث في اضطراب ويبدو أن الرسالة كانت تحمل مزيدا من المشاكل، فان رامون بنفسه لم يستطع أن يهدىء من القلق الذي اعترى وجه الطبيب، وظهر واضحا على حركاته واشاراته وهو

يجادل رامون فيغاس...

ظلت تينا تنتظر، حتى نفذ صبرها، فأسرعت الى حيث وقف الرجال الثلاثة وجذبت رامون من ذراعه وسألت:

"أرجوك أخبرني ماذا حدث، ما هذا الموضوع المثير الذي اثار الجدل؟"

"وضعت زوجة الطبيب طفلا ذكراً."

"خبر عظيم. رائع اذن سيمكننا أن نواصل العمل..."

"كلا. لقد أعلن الطبيب باصرار أنه لن يكمل العمل فهو يقول انه اذا أتمه كما وعدنا فسيمرض طفله ويموت، ويجب أن ينتظر ستة اشهر أخرى قبل أن يجرؤ على مواجهة الامر ولأن المولود ذكر فهو يخشى أن يضحي به."

"اذن، لن نستطيع أن نفعل شيئا اذا كان قانون الغابة يحرم عليهم هذا."

ولكن يبدو أن رامون لم يكن في نيته أن ييأس اذ قال:

"ان قوانين الغابة هي الحجة التي يحتمون وراءها دائما عندما يريدون أن يمتنعوا عن تقديم عمل لا يرغبون فيه، وأعتقد أنه آن الأوان للتحايل على الطبيب."

وأسرع يستدير الى الطبيب الرافض ويتحدث اليه. وازدادت دهشة تينا وهي تراه يخرج من جيبه علبة فيها أقراص من النعناع، وضع قرصا أبيض منها في يد الطبيب المفتوحة، وكان طوال الوقت يتحدث بسرعة. وأمسك الطبيب القرص بين أصابعه وأداره عدة مرات، بينما كان رامون يواصل حديثه ثم، وضع القرص في فمه.

ظل وجه الطبيب فترة جامدا تماما بلا تعبير، ثم تحول شيئا فشيئا الى دهشة شديدة ممزوجة بالخوف، وفتح فمه ليسمح للحرارة التي ألهبت فمه أن تهدأ، وتصارع في نفسه الخوف والسرور، وبدت المعركة على ملامح وجهه

واضحة، بينما وقفت تينا مع رامون في صمت تام في انتظار قراره وأخيرا، وبعد لحظات مشحونة بالقلق، انحنى فجأة وركع امام قدمي رامون فيغاس، ثم قفز واقفا وأسرع الى كوخه وفي هذه اللحظة، عرفت تينا أنهما انتصرا في معركتهما مع الطبيب. فاستدارت الى رامون وسألته:

"أرجوك، هل يمكن أن تشبع فضولي، وتشرح لي ماذا قلت له."

"هل تريدين أن أشرح لك التفاصيل، أم تريدين الخطوط العريضة؟"

"أي شيء، فقط اخبرني."

"ذكرته بأن اشهراً عديدة مرت، وقومه يعلمون أن كلامي معهم دائما هو الصدق والخير، وان البضائع التي أحضرتها اليهم لم تكن فاسدة، والسكاكين التي قدمتها اليهم تعمل أفضل من أي شيء قاطع لديهم، وذكرته أيضا باليوم الذي استعملت فيه عصاي النارية ضد القوى الشريرة في الغابة. وأخيرا قلت له انه لو وضع أحد أقراصي الاذاعة على لسانه، فلن يحدث أي مكروه لولده الذكر، باذن الله."

وأشار برأسه جهة الطبيب الذي كان مشغولا في العمل، وأردف:

"انني أحمل أقراص النعناع معي باعتبارها الورقة الاخيرة، الرابحة ولو أنها فشلت في اقناعه لما استطاعت أية قوة في الوجود أن تقنعه."

وانقضى اليوم وهما يراقبان عمل الطبيب.. كان يضع قطعة مسطحة من الحجر في مكان معين ومعها قطعة كعينة من الخشب، يدق بها النباتات التي جمعها، وبين لحظة وأخرى كان يسرع الى كوخه ليستريح قليلا، ثم يعود منتعشا

ليواصل عمله. وبعد أن أنتهى من هذا الجزء من العمل، أسرع الى الأدغال يبحث عن نوع معين من الأغصان يوقد بها نيرانه، وبعد أن اشتعلت النيران وارتفع لهيبها، وضع القدر عليها في زاوية معينة، ثم وضع فيها بعض الماء استعدادا لاضافة النبات المطحون الذي كان قد أعده.

الى هنا كان العمل يسير كما تريد تينا، ولكن عندما بدأ في الاستعداد لاضافة النباتات المطحونة، صاحت بصوت مرتفع:

"لا. لا ليس الآن..."

فقفز من مكانه خائفا، بعيدا عن النار، وأحست أنها تكاد تموت خوفا، ونظرت الى رامون مستنجدة وقالت:

"يجب أن أزن هذه النباتات المسحوقة التي سيضيفها، فبدون الميزان لن يكون لملاحظاتي أية فائدة. أرجوك اشرح له هذا."

واستدار بعد أن أومأ برأسه موافقا. وبدأت مناقشة حادة بينه وبين الطبيب المذعور، وراقبتهما تينا وهي تحاول جاهدة أن تفهم شيئا. وشعرت باليأس يغمر قلبها عندما أشار الطبيب اشارة رفض قاطعة وثمة كلمات أخرى شديدة قيلت، وردود غاضبة ارتفعت، قبل أن يجلس طبيب الاعشاب مرة أخرى - وهو يرمقها بنظرة كراهية - ثم قدم مجموعة المساحيق التي معه الى رامون الذي نظرت اليه تينا مستفهمة، فقال لها بلهجة شديدة الجدية:

"رفض أن تلمسى عقاقيره ولكنه سمح لي أخيرا بأن أقوم بما تريدين، بنفسي، اشرحي لي بسرعة ما يجب أن أقوم به قبل أن يغير رأيه."

وسارعت تينا تشرح له طريقة استعمال الميزان

الدقيق الصغير الذي أحضرته معها، وكان ينفذ تعليماتها بدقة شديدة، وفي اللحظة التي كان هو يقوم فيها بمراقبة الميزان، كانت هي تقيد ملاحظاتها بالارقام، كل وزن على وحدة، قبل أن يعيده الى الطبيب الذي يضيفه الى مياه القدر.

وكانت أعصابها تزداد توترا، وهي تراقب كل حركة من حركاته فقد كانت تخشى أن يضيف نوعا مجهولا من النبات دون أن تراه، يكون له تأثير فعال في العقار، يتعمد أن يخفيه عنها. فظلت مشدودة اليه. وكان تصميمها على ملاحظة مراحل العمل بدقة كفيلا بأن يجعلها تلتصق الى جواره، حتى بعد أن خرج رامون الى الغابة بحثا عن طعام.

وساد صمت ثقيل، بعد أن خرج رامون، وشعرت بالخوف يخنق قلبها، والعرق البارد يغمر جسدها. وبرغم أن الطبيب كان يتجاهل وجودها تجاهلا تاما، الا أنها كانت تشعر بكل حواسها، أن هناك رائحة قوية تملأ المكان حولها. رائحة الكراهية العنيفة التي تصدر عن هذا الشخص الصامت الساكن الذي يقبع بجوارها.

وعندما دخل رامون ومعه رسول الى الطبيب، وجدت نفسها ترتمي بين أحضانه، وهي تلقي بكل خوفها بين يديه.

وانتقلت نظراته الحادة بين وجهها الشاحب، ووجه الطبيب الجامد كالقناع:

"ماذا حدث لماذا ترتعدين هل أخافك؟"

وهزت رأسها نفيا، كانت مرهقة لدرجة لا تسمح لها بأن تشرح له الخوف الذي انتابها، ولم تقل غير كلمات متقطعة:

"أرجوك، لا تتركني وحدي معه مرة أخرى."

"حاولي ألا تضايقي نفسك، وأعدك انني لن أتركك وحدك مرة أخرى."

وعندما نظرت اليه، وجدت نظراته تتجه الى الرسول الذي حضر معه. كانت المناقشة حادة بحيث جعلتها تشعر أن هناك عائقا آخر ظهر في الأفق ولاسيما عندما لاحظت أنه قطب بشدة ما بين حاجبيه. وقال لها بغضب:

"الرسول يخبره بأن ابنه أصابه المرض والضعف، وزوجته تتوسل اليه أن يعود سريعا الى القرية، قبل أن يفوت الأوان."

"هل يتوقعون موت الطفل؟"

"انني غير متأكد اذا كانت هذه المزاعم حقيقية، أم أنها خطة أخرى رسمها الطبيب حتى يتمكن من التملص."

وتابعت عيناها هزة رأسه وهو يشير الى الطبيب الذي اندفع اليه، وقد بدا القلق والحزن في عينيه ثم تحدث الى رامون فورا. وعرفت تينا أنه قرر نهائيا أن يرحل. كان يتحدث ويهمس بصوت كالفحيح، وبغضب واضح، وهو يبلغه الانباء التي نقلت اليه حالة ابنه الصحية. ثم استدارا اليها وقفز تحت قدميها بشراسة، وفهمت أنه يحملها تبعة ما أصاب طفله!

وامر رامون الطبيب بأن يتوقف عن حركاته فورا. وظلت تينا تراقب وتستمع وهي تلوم نفسها على جهلها التام بهذه اللغة التي يتجادلان بها. فهي لا تفهم كلمة واحدة مما يقال، لكنها لاحظت رد فعل الطبيب. وشعرت بالراحة، فقد تحولت مشاعر الطبيب من الغضب الى القلق بعد أن وجه اليه رامون ما يبدو أنه سؤال حاد، وهز رأسه في يأس ثم عاد مسرعا الى قدوره.

قال رامون وعيناه الزرقاوان تلمعان:

"كانت حيلة كما توقعت، دبرها ليتخلص من وعوده لنا

بدون أن يثير غضب عصاي النارية.. وعندما عرضت عليه أن أعود معه لمساعدة عائلته، حاول أن يتملص بأعذار واهية أقنعتني بكذبه، لكننا على الأقل استطعنا أن ننتهي من هذه الحيل الى غير رجعة. هددته بأن سحر عصاي السحرية سوف تنقله في الزورق الابدي الى الموت، اذا حاول أن يكرر أكاذيبه او حيله، وأنا متأكد أننا لن نعاني من ذلك بعد الآن. والأهم من ذلك أنه وعدني بأن الدواء سيكون معدا في الصباح. اطمئني، لن يقوم بأي حيلة بعد ذلك، ويمكنك أن تستريحي حاليا، وأنت مطمئنة."

وكان محقا ففي فجر اليوم التالي، وضع الطبيب بين يدي تينا علبة من الخشب الصلب فيها دواء يشبه المرهم، رمادي اللون فحملته بعناية وأسرعت به الى رامون وكأنها تحمل أكسير الحياة. قالت وهي لا تصدق نفسها:

"حصلت عليه. أخيرا حصلت عليه."

وانفرجت شفتاه عن ابتسامة واسعة، وأمسك بذقنها ورفعها عاليا ليبعد عينيها عن الكتلة الرمادية، وقال مهنئا:

"صحيح، ان قلبي يرقص فرحا من أجلك، ان التضحيات التي قدمتيها لتحصلي عليه، تجعلك تستحقين مكافأة."

أخذت تراقب رامون وهو يعيد ربط الأسرة ووضعها في حقيبته، وكان ينظر اليها بين لحظة وأخرى وكأنه يتمتع بمنظرها وهي تضم علبة الدواء الى صدرها لكن هذه النظرات كانت تدفع القلق الى عينيها الواسعتين، فما لا شك فيه أن له دورا كبيرا في الوصول الى هذا النجاح. فمن دونه ما كان يمكن أن تصل اليه. وأرادت أن تعبر له عن شعورها بالاعتراف بالجميل ولكن، كيف؟

لم تستغرق رحلة العودة الى القرية وقتا طويلا..

وقابلهما أهل القرية بالترحاب، حتى أنها لدهشتها الشديدة شعرت بالأسف عندما فكرت في أنها ستغادرهم، لكنه كان شعورا موقتاً، فهي تتمنى لو نبتت لها أجنحة، اذن لطارت بها فورا الى لندن الى عمتها لتقدم لها هديتها.

وفي غمرة الانفعال الذي أصاب الجميع بعودتهما، لاحظت أن الطبيب تسلل مسرعا الى الكوخ الذي تقيم فيه زوجته ليطمئن اليها والى طفله وما لبث ان عاد، غارقا في الابتسام ولم تجد حاجة لمطالبة رامون بان يفسر لها ما يقوله الطبيب، فقد كان في وجهه المبتسم وصوته الضاحك دليلا واضحا على أن كل شيء على ما يرام.

واستمع اليه رامون باهتمام. وابتسم وهو يستدير اليها ليقول:

"ان الطفل وأمه في حالة جيدة، والطبيب في غاية الدهشة لأن سحري أقوى من سحر أجداده، وقد كان يعتقد أن شيئا من هذا هو في حكم المستحيل. وهو يقول أنه سيطيع أوامري منذ الآن في كل ما أريد، ويقول أيضا ان طعم الأقراص التي تناولها كان لذيذا جدا."

"هذا شيء رائع. ان معتقداته سوف تنتشر الآن بين جميع مواطنيه سيؤمن الجميع بك وستنتشر الاخبار في كل مكان: في الغابات والطرق والاحراج والادغال وفي أي مكان ستذهب اليه سيقابلونك بالترحاب، انني سعيدة جدا."

ووضعت يدها على ذراعه، وواصلت بحماسة:

"استطعت وأنت تساعدني في الوصول الى هدفي، أن تقطع شوطاً بعيداً الى هدفك أنت أيضا. فمنذ الآن، وفي كل مكان في الأمازون، سيعرف المواطنون أن اسم "كارامورو" يمثل لهم الصدق والاخلاص والمساعدة لكل محتاج."

واضطرت الى التوقف، وشعرت بحاجتها الى الحذر وهي تتأمل نظراته. ماذا فعلت هل تجاوزت الحدود؟ هل استطاعت الحماسة المتزايدة أن تفشي سر هذه المشاعر وهذا الحب الذي تشعر به نحوه؟ حاولت أن تنظر بعيدا، لكنها لم تستطع، فقد كانت أحاديث المواطنين وضحكاتهم تملأ المكان ولكنهما كانا في عالم وحدهما. وتوترت أعصابها وهي تنتظر منه أن يكسر هذا الصمت وطغى سوء الظن على عقلها، ودفع الألم وجهها الى الاحمرار، حين قرأت في ابتسامته البطيئة علامات الانتصار والرضى. انه يعرف، وكان ذلك واضحا عندما وصلت ابتسامته الى عينيه، فقد ضحك وجهه كله وهو يأخذ يدها بين يديه ويسألها:

"وماذا عنك أنت. أعني بالنسبة اليك؟"

"هل هذا مهم لك؟"

"أريد أن أعرف اذا كنت غيرت فكرتك عني نعم هل تذكرين ما قلت لي قبل أن نغادر مانوس أنني ساكون موضع اختبار خلال هذه الرحلة. فهل تلومينني على شوقي الى معرفة ما اذا كنت قد أصبحت مقبولا أم متهما؟"

"استطيع أن أقدر أشياء كثيرة تمتاز بها. انك بلا شك صادق في تحقيق رغبتك وفي مساعدة مواطنيك، ولا أستطيع تجاهل مقدرتك في القيام بمهمتك بكفاءة. لكن اعتراضي الوحيد هو ضعف ذاكرتك."

"ذاكرتي؟"

"نعم وكان من الممكن أن أغفر لك محاولات الاغراء التي تقوم بها دائما، لو لم يكن هناك انسان آخر، ولكني أعتقد أن هذه حقارة منك أن تحاول خيانة ثقة شخص آخر."

كانت سعيدة لأنها استطاعت أن تذكره بانيز، فانه

يستحق أن تؤلمه، تماما مثلما تشعر هي بالألم. فهي لا تستطيع أن تتحمل كلامه الحالم، وهذا الجو السحري الذي يحيطها به بحكم أنه يستطيع أن يذيب قلبها في دفئه، لكنها الآن ستكون بعيدة عنه لدرجة لن يحاول أن يصل اليها. ستكون قادرة على تحمل الصمت والغربة والوحدة التي تنتظرها في الأيام القادمة.

وكان من الواضح أنه لم يفهم أنها تشير الى دونا انيز، لكنه فهم بقية الكلمات، فظهر الغضب البارد في صوته. وقال:

"يا آنسة دونيللي. لم يعد هناك شيء نقوله."

وانبعث من عينيه لهيب أزرق، وهو يستطرد:

"للمرة الثانية تلصقين بي التهم جزافاً واني أعتبر كلامك هذا اهانة لي ولابناء وطني جميعا، فاذا كنت تعتقدين ان عرض صداقتي عليك يتعارض مع اخلاصك وولائك لبرانستون، فاسمحي لي أن أقدم لك اعتذاري. ولكن.."

ورفع يده ليمنعها من الاعتراض ثم أردف:

"أؤكد لك، أنني لم أكن أعلم أن علاقتك به حميمة الى هذا الحد."

وحملقت في وجهه مضطربة.. وفي الوقت المناسب توقفت عن الاعتراض، فاذا كان تصوره انها تحب برانستون سيصون كرامتها، فينبغي أن تتركه يواصل هذا التصور. وبكبرياء قاسية، رفعت رأسها متحدية نظراته واحتاج ذلك منها الى مجهود جبار، وهي تشعره بأنها تفقده الى الأبد، وقالت:

"الآن وقد عرفت، أعتقد انه يمكننا أن نواصل الرحلة."

٩ - العودة

لم يترك رئيس القبيلة ورجاله رامون وتينا الا بعد أن أوصلوهما الى القارب الصغير عند النهر، وساروا معهما في طريق عبر الأدغال اختصر المسافة.

وصافح الاثنان الزعيم وقبيلته مودعين اياهم، قبل أن يساعدوهما في النزول الى القارب وراحوا يلوحون لهما من الشاطىء طوال انزلاق زورقهما في النهر، حتى غابا عن أبصارهم عند أحد المنحنيات. وانتهت مرحلة من مراحل الرحلة الشاقة.

جلست تينا عند نهاية القارب، وهي تضم صندوق الدواء الى صدرها متشبثة به، وكأنه تعويذة تحميها من شر رامون وغضبه، راحت تحملق في ظهره العريض صامتة، وهو يجذف عبر النهر بأقصى سرعة ممكنة. وكانت ضربات المجداف في جوف المياه تعبر عن قوة الغضب الكامن في نفسه. ولم تعد له بتينا أدنى ثقة، حتى لتبادل الحديث. وحاولت أن تتناسى هذا الموقف، بالتفكير في اللحظة التي ستندفع فيها الى عمتها وتطلعها على اكتشافها العظيم وانتصارها الساحق ولكن حتى هذا الخاطر لم ينجح في انتشالها من أفكارها، لم يستطع أن يمحو من ذهنها المرارة التي تشعر بها منذ

المشهد الاخير في الليلة الماضية. فمنذ اللحظة التي أطلقت فيها كلماتها القاسية المعبرة عن الاحتقار، انقطع حبل الود الذي كان قد بدأ ينمو بينهما خلال الأيام القليلة الماضية. ولم يوجه هو اليها أي كلمة، ولا حتى نظرة سريعة تشعرها بوجوده.

ومرت ساعات طويلة، كئيبة. ولم تعد تينا تتحمل الصمت، الذي غدا ثقيل الوطأة، مرهقا لاعصابها، أكثر حتى من تلك اللحظات الرهيبة التي مرت عليها مع طبيب الغابة الذي حاول السيطرة عليها وتحطيم أعصابها، خلال انفرادهما في ظل الصمت العميق.

كانت تريد أن تتكلم، أن تصرخ لكن في اللحظة التي حركت فيها شفتيها، اذا بالقارب يستدير ليدخل احد المنحنيات ولمحت على شاطئه بكل حواسها وعينيها، السفينة المحلقة تقف بعيدا بعيدا، على الشاطىء. واستراح قلبها وبدأت نهاية رحلة العذاب تقترب، ولأنها لم تكن تعرف الطريق، كان ظهور السفينة مفاجأة لها، فلم تكن مستعدة حتى الآن لمواجهة افراد المعسكر وارتفعت صيحة ترحيب من القبطان جوزيف روجرز وفي الحال، كان الشاطىء يعج بالمرحبين وصيحاتهم تتعالى.

ووسط الضجيج، والانفعال والترحيب، وبعد أن ساعدهما البحارة في النزول من القارب، قابلتهما دونا انيز، وقد وقفت جامدة، منتصبة في مكانها. وصاح رامون وقد علا صوته فوق كل الاصوات المليئة بالحماسة والفضول:

"أرجوكم وقبل كل شيء، نريد طعاما سريعا، وبعد أن نأكل نجيب عن كل أسئلتكم، ونشبع فضولكم."

وبعد موجة أخرى من الترحيب والتهاني، انسحبوا

مسرعين لاعداد الطعام وعندما أصبحت الساحة خالية الا منهم هم الثلاثة، تحركت انيز، واندفعت وقد فتحت يديها، وأطبقتهما على كتفي رامون لتضمه الى صدرها، محتضنه اياه في شوق ولهفة، بينما استدارت تينا بحدة، واثقة من أن غيرتها الشديدة انعكست على نظراتها. ولا حظها ثيو فورا، وقد ظهر من حيث لا تدري، وأمسك بها، وأطبق عليها ذراعيه بقوة لم تستطع أن تقاومها، ولكنها نجحت في الخلاص من يديه اللتين أمسكتا خصرها بقسوة.. وحركت رأسها بعيدا في اللحظة المناسبة. وعندما حركت رأسها، وجدت عينيها تلتقيان بعيني رامون. كان يقف محتضنا انيز لكن نظراته الحادة كانت تراقب لقاءها ببرانستون، وتلاحظ رد فعلها ازاء حرارة اندفاعه. وبدأت اعصابها تهدأ.

"ثيو.. أليس رائعا أن نلتقي مرة أخرى هل اشتقت الي؟"

"طبعا. لقد افتقدتك بجنون.. والحقيقة التي يجب أن أصارحك بها، أننا لو كنا نعرف طريق القرية التي ذهبت اليها، لكنا خرجنا للبحث عنك."

ونظر الى انيز وقال:

"أليس كذلك يا آنسة انيز؟"

فتهالكت نظرات دونا انيز المشحونة بالكراهية على وجه تينا، وقالت:

"هذا صحيح."

ثم استدارت بتعبير آخر، كله اغراء، الى رامون وقالت:

"انت لا تعرف مقدار القلق والألم الذي شعرت بهما عندما عرفت أنك رحلت دون أن تأخذني معك. طبعا، أنا متأكدة أن هذه هي فكرة الآنسة دونيللي فالمرأة الانكليزية هي الوحيدة القادرة على البقاء ثلاثة أيام بلياليها وسط الأدغال مع

رجل هو قبل كل شيء غريب عنها."

واشتعل غضب تينا ووصل الى درجة الغليان، لكن اندفاعها للرد العنيف أوقفه هذا الغضب الذي ارتسم على وجه رامون، وهو يواجهها:

"انيز هذه الملاحظة غير حقيقية، وغير عادلة على الاطلاق. ذهبنا الى الأدغال للعمل ولن أذكرك بأن وظيفة الآنسة دونيللي دقيقة جدا وتحتاج الى مجهود شاق لا يسمح بتضييع الوقت. ان هدفها الرئيسي هو مساعدة البشرية للتغلب على آلامها. وقد نجحت في ذلك، ولهذا فان أي شك يجب ألا يقوم في مثل هذه الظروف، واقترح عليك أن تكفي عن مثل هذه التلميحات، وعن الخوض في حديث حول هذا الموضوع مرة أخرى هل فهمت؟"

واضطربت انيز، فلم تكن ترغب اطلاقا في اثارة غضبه. ولم يعجبها دفاعه السريع واضفاء كل هذه البطولة على الفتاة التي أصبحت تمثل بالنسبة اليها في الواقع غريما خطيرا. وأرخت اهدابها السوداء الطويلة على عينيها، وابتعلت المرارة التي غمرت قلبها بسبب كلماته. وكانت تينا تنظر اليها وقد أفعمت مشاعرها غضبا وقسوة.

قالت انيز معتذرة وقد تمالكت أعصابها:

"آنسة دونيللي أرجو أن تقبلي اعتذاري. يبدو أن دعابتي لم تكن في محلها."

وأومأت تينا برأسها معبرة عن قبولها الاعتذار.

وخلال العشاء، انهال عليهما سيل الاسئلة من كل جانب، وكان الفضوليون لا يتركون صغيرة ولا كبيرة الا سألوا عنها. كل التفاصيل استفسروا عنها. وشعر الجميع بالفخر والاعجاب وهم يشبعون فضولهم حول هذه الرحلة الناجحة.

وأشبع الجميع فضولهم، وبدأوا يتفرقون وهم يتحدثون فيما بينهم عن هذه المغامرة. وشعرت تينا بالضيق عندما غادر آخر رجل الساحة الواسعة، تاركا اياها وحيدة مع برانستون. وكانت منذ لحظات قليلة لاحظت أن رامون اصطحب دونا انيز ليوصلها الى غرفة نومها وهنا شعرت تينا بموجة من الخوف تطغي عليها وكانت في شوق شديد الى النوم المريح، فادارت عينيها اللتين أغمضهما الارهاق في اتجاه ثيو، الذي قال:

"تعالي نتجول قليلا حول المعسكر قبل النوم يا لعبتي، هناك أشياء كثيرة يجب أن نفعلها، وكلام أكثر يجب ان تسمعيه."

"ثيو، أنا آسفة جدا. أرجو أن تنتظر حتى الصباح فانني متعبة."

"لا بأس يا حبيبتي.. ولكن ما أريد أن أقوله لك مهم جدا، ولن يأخذ من وقتك سوى دقائق قليلة."

"حسنا، ولكن بسرعة."

ولم تستطع أن ترى تعبير وجهه في ضوء القمر، ولكنها شعرت به يطلق زفرة ارتياح وهو يقودها في اتجاه الغابة. وتبعته دون تذمر كانت تشعر في قرارة نفسها بالشكر له لانه لم يختر شاطىء النهر مكانا للقاء، هناك حيث ذكرياتها المؤلمة ولكن عندما حاول أن يتجاوز الصف الاول من أشجار الغابة، متوغلا بها الى الداخل، اعترضت قائلة:

"ان هذا المكان بعيد بما فيه الكفاية. والآن أخبرني بما تريد."

ونظرت اليه، محاولة أن تخترق هذا الغموض الكئيب الذي يحيط به، وشعرت بالخوف يتسلل اليها عندما رفض أن يجيب عن سؤالها. كان الصمت مشحونا بالخبث. صمت له معنى بعث الرعب في أطرافها، ودفعها الى القول:

"ثيو.. لماذا لا ترد؟"

وعندما امتدت يداه ليجذبها بقسوة اكتشفت غباءها وأخذت تلوم نفسها، ولكن بعد فوات الأوان. فقد صمم ثيو على ان ينال ما يريد ودارت معركة طاحنة بين الطرفين حاولت خلالها تينا ان تبعد ثيو لكنها ما لبثت ان سقطت ارضاً وغابت عن الوعي.

وحاولت أن تتنفس بعمق، نفسا عميقا من خلال شفتيها الرقيقتين المتألمتين، وكأنها تسمع أصواتا آتية من بعيد. سمعت صوت حركة عنيفة وسقوط رأس واصطدامها بالأرض. وحملقت بعينيها المذهولتين، ولم يستطع عقلها أن يدرك ما يحدث، أن يستوعب هذا المشهد الذي يأخذ مكانا أمامها.. كان ثيو ممددا، نصف واع، بجانبها بينما وقف رامون فيغاس مستعدا ناظرا اليه، حتى خلال هذا الضباب الذي يدور في رأسها، كانت تينا خائفة من العراك الوحشي الذي يمكن أن ينشب، والذي كان واضحا من الطريقة التي وقف فيها رامون متأهب القبضة بقوة، وكأنه يشتاق الى الالتحام، منتظراً حركة من برانستون.

وتناست تينا آلامها وهي تنظر اليه، مذهولة من هذا الغضب الجامح الذي يجتاحه، والذي لم يحاول أن يبذل مجهودا في اخفائه، والسيطرة عليه. ولم يكن هناك شك في رضائه التام وهو ينظر متوعدا في صمت الى ثيو راغبا في أن يراه واقفا على قدميه، ومستعدا بكل وضوح لأن يمارس معه كل قوانين الغابة القديمة، قوانين الأدغال، والقتال الدامي بلا رحمة. لقد تبدل تماما هذا الرجل الارستقراطي حفيد الاسبان، وحل محله رجل مستعد تماما لأن يحارب بسرعة وضراوة على نهج القبائل البدائية الاولى.

ورأت تينا والرعب يكاد يقتلها، أصابعه وهي تلتوى على رقبة ثيو في اصرار، فحاولت أن تطلق صرخة لكنها لم تنجح الا في إخافة مجموعة ضخمة من الطيور، أطلقت صرخاتها وهي تطير مبتعدة عن المكان، وصيحاتها تدوي في الفضاء لتزيد من حراجة الموقف وخلال هذه الاحداث الدامية، خرج صوت انيز صارخة لتزيد من غضب رامون:

"رامون، لا تفعل ذلك انك ستقتله."

واندفعت اليه، تغرس أظافرها في ظهره، وهي تتوسل اليه أن يهدأ وان يترك ثيو الذي جحظت عيناه في محجريهما، وكان ذلك الدليل الواضح على هزيمته. ووقفت تينا واتجهت الى رامون تهتف به:

"أرجوك، أرجوك، لا."

وارتعدت ركبتاها، عندما ترك ثيو، واستدار اليها بعد أن عرف صوتها، حاولت يائسة أن تبحث عن قوة لتقاوم بها هذا الاتهام الغريب الذي لاح في عينيه، لكنها برغم ذلك شعرت بالسعادة، فمن الأفضل لها أن تعاني من اتهامه الظالم لها، عن أن تسمح له بالخضوع لعاطفة مدمرة، قد تحطمه.

"تتوسلين الي من أجله بعد كل ما فعله، مازلت تكنين له المودة؟"

ليست حياة ثيو التي تهمها، انها تريد أن تعترف بذلك، لكنها تراجعت، ادركت أنه لو عرف أنها تكره ثيو، وأنها تخافه، لأفلتت أعصابه، وازدادت وحشيته ورغبته في الانتقام، من أجل رامون فقط يجب ألا تعترف. وارتعدت وهي تقول:

"كان هناك سوء تفاهم، أرجوك، أرجوك اتركه.. أتوسل اليك."

وتلاشى غضبه، ورأت شفتيه ترتعدان وهو يصارع غضبه حتى يتمكن من السيطرة على أعصابه، وأدارت عينيها بعيدا عن الاتهام المركز في عينيه. وساد الصمت. لم يقطعه سوى صوت تنفس ثيو الثقيل. وترك رامون رقبته، وركله بقدمه باحتقار شديد، صائحا به: انهض.

وأطاع ثيو في الحال وواجهه رامون باحتقار قائلا:

"يجب أن تشكر الآنسة دونيللي لأنها أنقذت حياتك، أنقذتك من شر ما كان يمكن أن يحدث لك، لكني أعدك بشرفي أنني سأسعى بكل جهدي حتى تكون هذه هي رحلتك الأخيرة، لن تشترك في أي بعثة علمية أخرى طوال حياتك. والآن أغرب عن وجهي، بسرعة، قبل ان أغير رأيي وأعود لأنقض عليك."

ولملم ثيو نفسه، وكالشبح اختفى في الظلام.

وشعرت تينا بالارتياح بعدما انتهت المعركة الرهيبة. وكادت زفرة الراحة تنطلق من بين شفتيها وهي تحاول مبارحة المكان، غير ان رامون تحول اليها مسرعا ليقبض على كتفيها وهو يطلق لعنات بلغته الاسبانية ثم أجبرها على مواجهته، واقترب كثيرا من أذنها، وهمس لها:

"أرجوك، أخبريني. قولي انني مخطىء في احساسي بشعورك نحوه. قولي وسترين ما أفعله انتقاما منه لما فعله بك."

"لا. لا تفعل شيئا."

وشعرت به يتجمد في مكانه، وانحنى يرمقها بنظراته الحادة، باحثا في وجهها الشاحب عن تعبير يكذب ما تقول. وواجهت نظراته بشجاعة، برغم صرخة الألم التي كانت تمزق قلبها، والتي كادت تفلت من بين شفتيها، لكنها استطاعت أن تستعيد قناع البرود وترسمه على وجهها ليخفي

مشاعرها الحقيقية تجاه صمته المتسائل• وبعد لحظات ثقيلة طويلة، سقطت يداه الى جانبه وخطا خطوة مبتعدا عنها، وكان هيكله المتوتر وهو يتحرك مبتعدا يكاد يختفي عن ناظريها وراء الدموع التي ملأت عينيها• وكادت تسقط على الأرض• لم تعد تحتمل جسمها ازاء الآم قلبها الذي يتمزق شوقا اليه، وخوفا عليه• حتى أن صوت أنيز عندما اخترق الصمت شعرت ازاءه بفرحة الغريق الذي ألقى اليه بطوق النجاة:

"رامون، هل تعلم؟ لقد جعلت من نفسك غبيا كبيرا نعم في منتهى الغباء!"

"كيف؟ ومن الذي جعلني غبيا؟"

"علمت أخيرا ان الآنسة دونيللي خدعتك، انها ليست كما تعتقد كريستينا دونيللي المكتشفة المعروفة وانما هي ابنة شقيقها، متنكرة باسم عمتها، وأنا لم اهتم بأن أعرف السبب لكني أعتقد أنك ستهتم بذلك طبعا، أليس كذلك يا رامون؟"

انه ثيو ولا احد غيره يمكن أن يفشي سرها• انه الوحيد الذي يعرفه• لقد كانت من الغباء والجهل بحيث أطلعته على حقيقتها، وهو لم يكن في أي وقت من الأوقات جديرا بثقتها• ووقفت في مكانها بلا حركة، وأبعدت عينيها بعيدا عن رامون الغاضب، وانتظرت رد الفعل وشعرت بالأسف لانها لم تستطع أن تثق به عندما كانت الفرصة سانحة، ولأن الظروف اضطرتها الى خداعه، هو بالذات• والأسف الأكبر والأعمق، لأن انيز هي التي أمدته بهذه المعلومات وكشفت سرها أمامه• وشعرت بأنها على وشك الاغماء، وارتعدت تحت نظرات انيز الحافلة بالكراهية والاحتقار التي تصبها عليها، وهي تقف في عظمة تنتظر نتيجة انتصارها•

وفقدت انيز صبرها• وقالت:

"رامون•• هل سمعت ما قلته لك انها ليست كريستينا دونيللي، وربما لم تضع قدمها في الأدغال من قبل، باختصار انها كاذبة، ومزيفة•"

وفجأة تحدث رامون، بصوت ناعم، غير متوقع:

"انيز من أين حصلت على هذه المعلومات• هل يمكن أن تخبريني؟"

"هل هذا امر مهم؟"

"نعم• اعتقد ذلك!"

"أخبرني ثيو بذلك، وفي الحقيقة أنا مندهشة من سؤالك، انك تعرف انه الوحيد الذي نال ثقة الآنسة فهل كنت في حاجة الى السؤال؟"

"هل أفهم من ذلك انكما اصبحتا صديقين خلال غيابنا؟"

وظهر القلق واضحا على انيز، فرمته بنظرة غاضبة وقالت:

"شبه صداقة فقط، ولكن ليس الى الدرجة التي تدعوك الى الغيرة، كنا طبعا نشعر بالوحدة، والهجر، فكان طبيعيا أن نتقارب قليلا•"

"اذن، أرجوك أن تبلغي صديقك ان هذه المعلومات الثمينة التي أتيت لتنقليها الي لم تكن مفاجأة، لقد كنت أعرفها معرفة تامة انني لست غبيا، ولا جاهلا واذا كان برانستون فضوليا ويريد أن يعرف المصدر الذي استقيت منه معلوماتي، فأرجوك أن تخبريه أن مصدري كان الآنسة دونيللي شخصيا!"

١٠ - الليلة الاخيرة

جلست تينا في مقعدها، وقد اتخذت وضعا مريحا في السفينة المحلقة التي بدأت المرحلة الأخيرة من رحلة العودة، وكانت قد بدأت تستريح من المعاناة التي واجهتها خلال الأيام القليلة الماضية. فها هي تقترب من نهاية الرحلة، وبدأت أعصابها تهدأ كلما فكرت في أن الحرب التي خاضتها انتهت ولعل نهايتها كانت في اللحظة التي أعلن فيها رامون أنه يعرف حقيقة شخصيتها. حاولت تينا مرارا أن تقترب منه، أن تقدم له تفسيرا، لكنه كان يرفض الاستماع اليها. وعندما كانت تقف في مكان واحد معه، وتبدأ في الحديث، كان يعتذر برقة ولطف باضطراره للانسحاب لانشغاله بأمور أخرى وبالتدريج اقتنعت تينا بأنه يرفض أن يستمع الى أي دفاع تحاول أن تبديه أمامه.

وكثيرا ما تساءلت تينا عن السبب الذي دعاه الى الوقوف بجانبها ضد دونا انيز في تلك الليلة، لكنها لم تستطع، وأدركت أنها لن تتمكن حتى في المستقبل أن تشبع فضولها وتعرف لماذا أطلق هذه الاكذوبة الواضحة. وتذكرت تينا كيف واجهت انيز هذا الموقف: لم تكن الدهشة هي التي انطبعت على وجهها، وانما سلسلة من المشاعر والانفعالات ولعل

أكثرها وضوحا تعبير الشك الاكيد.

ولولا أن الاخوين بريكلنغ اقتحما حياة تينا، وحاولا أن يملآ فراغها ولا سيما بعد أن اختفى برانستون عن أنظارها لولا ذلك لشعرت بالبؤس والوحدة، وقد ساعدها على الاندماج في صحبتهما أنها لم تكن في حاجة الى تبادل الحديث الكثير معهما، فقد كان عدم المامهما باللغة الانكليزية سببا في أن يكتفيا منها بابتسامة أو ايماءة من رأسها، تشعرهما بأنهما نجحا في تسليتها.. ولم يكن غيرهما يصلح لأن تكون رفيقة له خلال هذه الفترة. فالاخوان بريكلنغ لم يعرفا أن صمتها وسكونها سببهما تلك الاحزان العميقة التي ترسبت في أعماقها، وانما تصورا أن ذلك راجع الى عدم قدرتها على تبادل الحديث معهما أما الافراد الباقون فكانوا يشعرون بكل تأكيد أن هناك شيئا غير عادي حدث وكان كل منهم يحاول بكل طاقته أن يتجاهل ما حدث، وأن يغرق نفسه في العمل، ويتظاهر عندما يتحدث اليها أنه لا يلاحظ هذا الاسى الجامح الذي يرتسم على فمها الحزين.

لم يعد يفصلها عن مانوس المحطة النهائية في رحلتها سوى ساعات معدودة ساعات قليلة باتت تفصلها عن الحرية. وبدأت الاحاديث تهدأ شيئا فشيئا كلما سارت السفينة في رحلتها وقد جلس أعضاء البعثة جميعا في أماكنهم، كل منهم يناقش بينه وبين نفسه، النتائج الطيبة التي توصلوا اليها في أبحاثهم.

ويبدو أن تينا كانت قد استغرقت في النوم، عندما شعرت بيد تهزها من كتفها، فاستيقظت في الحال لكنها لم تسترد وعيها كاملا، طافت بعينيها في ما حولها وهي تشعر بان هناك شيئا ما ناقصا في الجو المحيط بها. وأخذت

تفحص المكان باحثة عن هذا النقص الذي تشعر به الى ان أشار لارس بريكلنغ برأسه الأشقر الى الشاطىء وهو يبتسم٠ وهنا أدركت أن ما كانت تشعر به انما هو صوت هدير السفينة الذي صمت: لقد وصلوا وارتفعت الضحكات، وتبادل الجميع التهاني، وهم يسارعون في النزول الى الميناء٠ ولكن قبل أن يتحركوا في طريقهم الى الفندق، وقف رامون على سور السفينة وأشار اليهم بيده طالبا منهم الانتظار، وابتسم وهو يخاطبهم:

«لا أريد أن اعيقكم عن التمتع بالمدنية لكني أريد أن أذكركم بأن الفندق يقيم هذا المساء حفلا خاصا للعشاء احتفالا بنا٠ أرجو ألا ينسى أحدكم نفسه في الفراش المريح ويتخلف عن الحضور٠ وبما أن جميع الرجال الرسميين في المدينة تقريبا سوف يحضرون الحفل فأرجو أن يكون الحضور بملابس السهرة٠٠»

وشعرت تينا بالخوف، من هذه الفترة التي ما زالت باقية أمامها، والتي ستكون مضطرة فيها الى رؤيته ولقائه٠ انها لم تكن تريد هذه الدعوة انها تشعر بالقلق وتتوقع مزيدا من الأحداث٠ لقد تصورت أنها نالت حريتها أخيرا وأنها لن تشعر ثانية بوجوده، ولكن هاهي ذى مضطرة للجلوس معه في حفل واحد، وسوف سيكون عشاء طويلا وعذابا آخر تعانيه، كل نظرة منها سوف تلتقي بنظراته العميقة الزرقاء٠ وسوف تجد قلبها يذوب في مكانه، سيعصره الألم والاسى٠٠ يجب أن تجد حلا، لماذا لا تدعي الاصابة بالصداع نعم الصداع هو الذي سيخلصها من هذا المأزق ولن تكون كاذبة فهي تشعر بالفعل بالآم حادة في رأسها، وبان معدتها تنقلب لمجرد التفكير في الطعام٠

وعندما وصلت الى الفندق، كان الصداع قد وصل الى درجة لا تحتمل، وكانت غرفتها في الفندق، بما تحتويه من تكييف الهواء، والنوافذ الخضراء الهادئة والفراش المريح٠ هي الأمل الذي ترجو أن تصل اليه في هذه اللحظة٠ وعندما أغلقت عليها الباب، نظرت الى حذائها الصغير القذر، قبل أن تتمدد على الفراش وأغلقت عينيها طلبا للنوم٠ لكن النوم رفض أن يستجيب لها، وحاولت ان تزيح كل الافكار الكئيبة من ذهنها٠ لكنها، وبرغم كل محاولاتها، وجدت نفسها تتوه مع افكارها مسترجعة أسعد يوم من أيام حياتها، تلك الليلة الخيالية في قلب غابات الأمازون ورامون يروي لها بصوته الجذاب كل شيء عن حياته٠ عن آماله وأحلامه وطار بها الخيال ليتركز على اللحظات التي دعاها فيها الى أن تقص عليه حياتها وطفولتها وكل ما يحيط بها، وكيف كذبت عليه، رغبة منها في أن تبعد عن نفسه أي شك في حقيقتها٠ ترى كيف كان رامون سيتقبل منها الحقيقة لو أنها صارحته بها في تلك اللحظات؟ هل من المعقول أنه كان يعرف أنها ليست كريستينا دونيللي الحقيقية، وأنه انما كان يستدرجها ليقودها الى الاعتراف؟ ولكن٠ لا٠ وقاومت هذه الفكرة بشدة٠ لم يكن ذلك معقولا، ما هو معقول انه كذب على انيز فمن أين كان له أن يعرف السبب الحقيقي، أنه حاول أن يظهر امام انيز بمظهر الرجل الواثق من نفسه، الذي يعرف كل شيء وليس الشخص الذي يمكن لاحد أن يخدعه، ما من رجل على الاطلاق يرضى لنفسه بأن يظهر في صورة من كان غبيا، ولا سيما امام المرأة التي ينوي أن يتزوجها٠

وشعرت بالضيق من نفسها، فهي تحن الى رجل لا يكاد يشعر بوجودها وقررت أن تهرب من أحزانها بأن تشغل نفسها

بأي عمل ايجابي، أن تأخذ حماما لعله يساعدها على النوم•

ولكن بدلا من أن يجلب لها هذا الحمام الفاخر الدافىء النوم، اذ به يكفل لها درجة من الراحة لا يمكن بعدها أن تطلب المزيد فأخذت تدور في غرفتها، ثم عبرت الغرفة لتقف أمام الخزانة التي تضم ثوب السهرة الوحيدة الذي أحضرته معها، والذي أصرت عمتها كريس على أن تأخذه في رحلتها مع ملابسها• كان ثوبها فاخرا جميلا، يصلح لحفلات الكوكتيل والسهرة•

وذهلت عندما سمعت نفسها تضحك• لقد كان الصوت غريبا، بحيث شعرت بأنها لم تسمع هذا الصوت يتردد في داخلها منذ مدة، ان منظر رامون مع انيز، وطريقته في رعايتها ومداعبتها، وضع حجرا ثقيلا على قلبها، وقتل المرح في روحها لكنها كانت ما زالت في العشرين من عمرها، في عنفوان الشباب، وبدأت طبيعة هذه المرحلة المرحة من العمر تعاودها• الآن ذهبت عنها آلام الصداع وذهبت معه رغبتها في النوم• والى جانب هذا بدأ نداء غامض في أعماقها يجذبها لتقضي الليلة الأخيرة - ليلتها الوحيدة الباقية - في صحبته فستكون ذخيرتها في ذكرياتها الى آخر العمر وغمرتها الفرحة• يجب أن تجعل هذه الليلة ليلتها الأخيرة حقا، مع الرجل الوحيد الذي أحبته• يجب أن تذهب وأن تترك كل شيء للقدر•

قبل الساعة الثامنة، وهو الموعد المحدد للعشاء، كانت تينا مستعدة تماما لكنها لم تستطع أن تواجه المجتمعين، وتنزل وحدها الى القاعة لتتناول المرطبات قبل العشاء، فقد ترددت طويلا، ودارت حول الغرفة عشرات المرات ثم سمعت طرقاً على الباب، وصوتاً يقول:

"تينا• هل أنت مستعدة؟ أسرعي ان الجميع في انتظارك•"

وبسرعة أمسكت حقيبة السهرة في يدها، وأسرعت تفتح باب غرفتها فوجدت فيلكس كريللي واقفا وقد أمسك في يده صندوقا صغيرا فيه بعض الورود ولكن عندما مد يده بحرارة اليها مقدما الباقة، تدلى فمه من الدهشة وحتى الكلمات التي كان قد أعدها ليحييها ويرحب بها، ابتلعها وسط دهشته بينما وقفت تينا صامتة حتى تتبدد دهشته وأحست بالرضى الآن، فقد تأكدت أن تأثيرها سيكون كما تريد تماما، ولم تشعر بالقلق للدهشة التي أصابت فيلكس، فمن الطبيعي أن يحدث له هذا وقد اعتاد أن يراها في ملابس الرجال الخشنة، طوال الأسابيع الماضية• ثم بدأ ينتقل بعينيه من شعرها الى جسمها الرشيق وثوبها الرقيق، حتى استقر على حذائها الذهبي، وسألته منفعلة:

"ما رأيك هل أبدو جميلة؟"

"عزيزتي تينا• انك ساحرة انني أموت شوقا للنزول معك الى السهرة لأري الرجال جميعا وهم يسجدون تحت قدميك•"

وكانت سعادة فيلكس لا توصف، بعد ما قابلته بهذه العاصفة من الدهشة والاعجاب• كان الرجال يجلسون، وهم يتحدثون بكسل واسترخاء، عندما شد انتباههم منظر تينا وهي تقف في الباب متعلقة بذراع فيلكس كريللي، وارتفعت صيحات الاعجاب، كل بطريقته لكنها كلها كانت تعبر عن الدهشة الممزوجة بالفرحة• وخلال حرارة اللقاء، أجالت تينا نظراتها في القاعة، وعندما تأكدت أن رامون وأنيز لم يظهرا بعد، بدأت تستريح، واندمجت تماما مع الجميع في التمتع بعبارات الاعجاب التي لم تكن مألوفة منهم• واستطاع الاعجاب أن يعيد ثقتها بنفسها الى درجة كبيرة، حتى

أنها عندما ظهر رامون ورفيقته، قابلت ظهورهما بأعصاب هادئة تماما ، أكثر مما توقعت .

كانت انيز متألقة بثيابها الرائعة . لكن دخولها لم يحدث الاثر الذي احدثه دخول تينا . وعندما وقعت عيناها على تينا لمعتا أكثر من أي شيء آخر . فرمقتها بنظرة من أعلى رأسها الى أسفل قدميها ، بغضب جعل شفتيها تنتقبضان كالخط الرفيع، قبل أن تستدير وهي تلعنها في سرها .

وازدادت ثقة تينا في نفسها ، واستدارت تبحث عن رامون، نظرت اليه، لكنها كادت تجري هاربة من الغرفة، عندما قابلها بنظرة باردة ثم استدار بظهره اليها ليستمع بانتباه الى الحديث الذي كانت انيز تردده . وطبيعي انها ابتلعت أساها في حلقها ، ولم تحاول أن تظهر الألم الذي يعصر قلبها ، لكن الرجال - الذين لم يكونوا بالجهل الذي تتخيله - أحاطوا بها، بتعاطف صامت وبدأوا يتنافسون في محاولات للتغلب على الحزن الذي يبدو في عينيها . بدات أحاديثهم وتعليقاتهم المرحة تمنع أي حزن من التغلغل في أعماقها طوال العشاء والفترة التي سبقته .

كانت تينا تراقب حلبة الرقص بعين وترمق رامون فيغاس وانيز بين الفينة والاخرى بالعين الاخرى . عندما سمعت صوت ثيو يفح:

"أخيرا .. وصلت اليك . تعالي اريد ان ارقص معك ."

كان يترنح حتى وهو يتحدث . وجذبت تينا نفسها بعيدا وقالت باحتقار:

"لكنني لا أريد أن أرقص معك . لا أريد حتى أن أتحدث معك . اذهب بعيدا ، أرجوك واتركني وحدي ."

لكن كلامها جاء متأخرا . لقد أثاره حديثها ، وكأنما

ذكرته كلماتها بهذه المشاعر المهينة التي يعانيها منذ هاجمه رامون . وكرجل في مثل ظروفه ومكانته ، رجل يعرف أنه هزم وأنه أصبح معروفا بالجبن، كان ذلك كله عذرا كافيا لتلمس معركة يسترد فيها كرامته وتصور أنه يستطيع أن يستميل تينا ، ويستعيد مكانته عندها ، ببعض الكلمات الهادئة ولكن نظرة الاحتقار التي حدجته بها ، واعتراضها الحاد على الرقص معه، حوله فجأة الى وحش كاسر فجذبها بعنف الى حلبة الرقص ، وقبض بشدة على جسدها بين يديه .. ولم تستطع أن تفعل شيئا ، اكتفت بأن أخذت ترسل بنظراتها الى المنضدة التي يجلس اليها الرجال ، في طلب النجدة، وهم لا يعرفون بما حدث لها ، اذ كان بعض الغرباء يفصلون بينها وبينهم، فلم يتمكن أحد من رؤيتها ، فلم تجد أمامها من سبيل غير أن تضغط على شفتيها بقوة حتى لا تنطلق منها صرخة . ولكنهما لم يرقصا أكثر من خطوتين، عندما سمعت صوتا ثلجيا غير متوقع يتجه الى ثيو:

"برانستون، سآخذ مكانك، الآنسة دونيللي ستكمل هذه الرقصة معي ."

ولم تستطع تينا أن تفهم أبدا كيف حدث هذا ، لكن في لحظة خاطفة وجد ثيو نفسه محاصرا بمجموعة من الرجال الغاضبين، قرروا أن يخلصوها من صحبته . ولم يشعر بنفسه الا وهو ينسحب، قبل أن يرد أو يشعر أحد من الراقصين بما حدث !

اقتاد رامون تينا الى ركن منعزل في حلبة الرقص وقال:

"هل يجب أن تلعبي بالنار دائما؟ ألم تتعلمي بعد أن برانستون ليس هو بالرجل الجدير بالثقة؟"

ورفعت رأسها اليه: هل يتصور أنها هي التي تبحث

عن صحبة برانستون لقد ظهر منها بوضوح أنها لم تكن تريد أكثر من أن تبتعد عنه. انها تحتقره. وتخاف منه، وفتحت فمها لتعترض على تصوراته لكن كلماتها ماتت على شفتيها عندما التقت عيناها بعينيه، ورأت هذا الغضب المتفجر، انها لم تره أبدا من قبل في مثل هذا الغضب.

وانتهت الموسيقى فجأة، بمعزوفة جميلة وكالمخدرة، لم تبد أي استعداد للمقاومة عندما قادها باصرار عبر باب النافذة الفرنسية في طريقه الى الحدائق الخالية. ولم يتوقف حتى أصبحا بعيدين عن الفندق، ولم تعد الموسيقى تسمع الا من بعيد. وفي الظلام، وبين الاشجار الكثيفة التي تصنع دغلا أسود لا تظهر فيه غير السترة البيضاء التي يرتديها، وقفت بأنفاس متقطعة في انتظار غضبه الجامح أن يندلع. ولم تنتظر طويلا، فقد قال لها آمرا، بصوت غاضب:

"أعتقد أنك تعرفين الآن النتائج السيئة لتصرفاتك الحمقاء. يجب أن تتصرفي بحكمة أكثر، وأن تتجنبي اغراء كل رجل يقابلك. تعبت من المحاولات الدائمة لانقاذك من المآزق الحرجة التي توقعين نفسك فيها، ولا تستطيعين النجاة منها. وأقترح عليك، أن تتركي فن الاغراء للنساء الاكبر سنا اللواتي يستطعن كبح جماح العاطفة في الوقت المناسب."

"اغراء؟ ولكن أنا لم أكن... أوه كيف تجرؤ!؟"

ووقفت على أطراف أصابعها، لا تجد كلاما تعبر به لتقول أن تصرفات الرجال هذا المساء كانت تحمل رقة طبيعية. كانت متأكدة من أن اتهاماته لها ليست الا نوعا من الانتقام من الاتهام المماثل الذي سبق لها ووجهته اليه. وعندما أدركت ذلك هدأت قليلا، وهي تستطرد:

"ان اشاراتك لها مغزى عميق يا سيد. الآن استطعت أن

أفهم العلاقة القائمة بينك وبين انيز. انك تشعر بالأمان معها، فأنت متأكد أن تصرفاتك كلها مقبولة ومفهومة ونتائجها لا خوف منها."

وعندما انتهت من الكلام، شعرت بالخجل فوقفت في انفعال وشوق لمعرفة رد الفعل القاسي لكلماتها الجارحة.

لكن الذي أربكها أنه أجابها برقة شديدة، حتى أن التهكم الذي صوبه في كلماته، لم تستطع أن تدركه الا بعد قليل:

"انيز؟ طبعا، أوافقك على ذلك.."

ثم أحنى رأسه نحوها، وأردف:

"انها ليست طفلة تتخفى في ثياب امرأة."

وقفزت روحها الى حلقها، كان ظله يغمرها وانعكس الألم الذي تعانيه في الكلمات التي صدرت منها في الظلام:

"حاولت أن أخبرك لكنك لم تكن تريد أن تستمع."

"كان يجب أن تخبريني في الغابة عندما حاولت أن أجعل الاعتراف سهلا بالنسبة اليك."

"هل كنت تعرف حقا، وكنت تقول الحقيقة لانيز. ولكن كيف؟"

"أنا لا أكذب أبدا. انني أترك الكذب لك، فانت خبيرة فيه."

"لكنك كذبت فعلا. أخبرت انيز انني انا اطلعتك على الحقيقة، وهذا ليس صحيحا."

"ألا تعرفين شيئا عن هذه الكوابيس التي تهاجمك في نومك؟"

وشعرت بالحيرة ازاء هذا السؤال الغامض. وانتظر ردها صامتا ولكن عندما بادلته نظرته بنظرة حائرة بدأت عاصفة الغضب في نفسه تهدأ قليلا. وقال:

"في الليلة التي كنا فيها في قرية جواهاريبوز،

هاجمك كابوس في نومك. وقد استيقظت على صراخك، كنت تستنجدين بأبيك، وعندما حاولت أن أعيد اليك الهدوء، بدأت تتحدثين عن طفولتك وخوفك من الأدغال وقلت لي كل شيء والأسباب التي دفعتك للقيام بهذه الرحلة والاسباب التي دفعتك الى خداعي."

ووقفت جامدة وتذكرت الطمأنينية التي غمرتها في تلك الليلة من الصوت الرقيق، واليدين الحانيتين. كانت تتصور أنه مجرد حلم.. وتذكرت القبلة التي تلقتها على رأسها، والتي عاشت في ذاكرتها. الآن فقط أدركت كل شيء لقد كانت قبلته هو التي انطبعت على جبينها!

واضاف رامون:

"من أجل هذا، قررت أن أحترم قرارك لكني كنت أتمنى أكثر من أي شيء آخر، أن تخبريني بارادتك وحريتك بما أخبرتني به وأنت في غير وعيك. كنت أريد ان أشاركك في حمل هذا العبء وان أساعدك في محنتك التي كنت بلا شك تعانين منها، ولكن، بدلا من ذلك، فضلت أن تغلقي الباب في وجهي. بل واتهمتينني بأنني أحاول أن احتل مكان رجل غائب."

ونظرت اليه فجأة. واستغربت نظرات الحزن هذه التي تغمر عينيه الزرقاوين ودون أن تشعر، وبغير تفكير، قالت وهي لا تستطيع أن تواصل التنفس:

"رامون.. لا.. لا..."

ورفعت يدها، لتزيح برقة هذا الألم الذي تجمع على شفتيه. وكانت لحظة مثيرة فقد وقف مكانه بلا حراك. وعندما أفاقت الى نفسها فجأة، احمر وجهها، وحركت يدها بعيدا، ورد عليها بأن جذبها بين ذراعيه.

وأحست بانها يجب أن تقاوم. ولكن من أين لها

الارادة؟ تذكرت بأن هذا الرجل سيتزوج دونا انيز، وأنها لن يكون لها في حياته غير مجرد دور ثانوي. ولكن التحذير لم يصادف صدى في نفسها وبرغم أنه جرح قلبها فانها كانت تفكر في أن هذه هي ليلتها الأخيرة ويجب أن تستمتع بها الى آخر دقيقة. وهكذا تعلقت به، كانت تتمنى بكل جوارحها، لو أن العالم ينتهي قبل أن تفارقه ولكن بعد فترة قصيرة، أبعدها عنه، ونظر اليها بوجه شاحب مرتعد وقال:

"يجب أن نتكلم."

وكان يرتعد بعنف ظاهر وهي تواجهه:

"انني لا أستحق العقاب مرة أخرى. يجب أن أعرف أين أقف بالضبط؟ لقد تبادلنا التحديات مدة طويلة والآن يجب أن أعرف حقيقة شعورك بالنسبة لبرانستون اخبريني بصدق أرجوك يا تينا حقيقة أنني أحبك بعنف، ولكن ذلك ليس معناه أن أتنافس معه من أجلك."

"أنت تحبني؟"

"ولماذا - في رأيك - سمحت لك بالاشتراك في هذه الرحلة؟ لم أكن أؤمن أبدا في هذا الذي يسمى بالحب من النظرة الاولى. لكني منذ لاحظت أنك تحاولين اخفاء بساطتك وقلقك، وراء محاولتك الظهور بمظهر الشخص الشديد الثقة في نفسه، وعندما سمعتك تتحدثين بغطرسة عن موضوع كان من الواضح أنك لا تعرفين عنه أي شيء، وحتى عندما حاولت تشويه سمعتي وتنتقصين منها، كنت قد وقعت أسيرا لشجاعتك، وروحك المشاغبة، وحاولت ان أقنع نفسي بأن هذا غباء مني، ولكن كان يجب أن أعرفك أكثر، ولذلك تركتك تعتقدين أنك استطعت خداعي، لاحتفظ بك قريبة مني ولكن.."

وتغير صوته وهو يستطرد: "لقد تحولت الرحلة لتصبح جحيما، أعلنت عن شخصيتك الحقيقية لبرانستون، وفضلت صحبته، حتى عندما كنا في يومنا الأخير عند طبيب الأعشاب، وعندما بدأت أشعر أنني أخيرا أستطعت الحصول على جزء من ثقتك، اتهمتني بأنني أحاول احتلال مكان برانستون."

وصرخت تينا صرخة ألم، وهي تستنكر كلامه:

"رامون لا، حاولت فقط تذكيرك بانيز."

"انيز، وما دخل انيز بيننا؟"

"أخبرني ثيو انها خطيبتك، وأنكما ستتزوجان بعد العودة من الرحلة."

وساد الصمت بينهما، وكل منهما يحاول ان يدرك سوء التفاهم الذي فرق بينهما... وعندما نظر رامون الى وجه تينا، اندفع شعاع من الضوء يشق السحاب الأسود الذي ملأ قلبه وطفى على عينيه، وقفز قلبها فرحا وهو يقول بحنان:

"قررت ألا أتزوج غيرك اذا كنت تريدينني."

ولم تتردد:

"انني أكره ثيو.. كرهته دائما لكني كنت أخاف منه، كان يهددني وكنت أخشى أن أراك تحتقرني، اني أحبك يا رامون ولم أحب سواك."

وفجأة، أخذت الآلام والاحزان تذوب في فيضان من لهيب المشاعر الذي اجتاحهما وحولهما الى شخص واحد. وذابت كل الشكوك، بعد أن انفتحت أبواب الاشواق المغلقة لتنطلق من عقالها، عارمة تزيح كل شيء أمامها.

وبعد فترة، رفع رأسه لينظر الى وجهها ويسمعها تقول:

"كارامورو، انني احبك الى الابد."